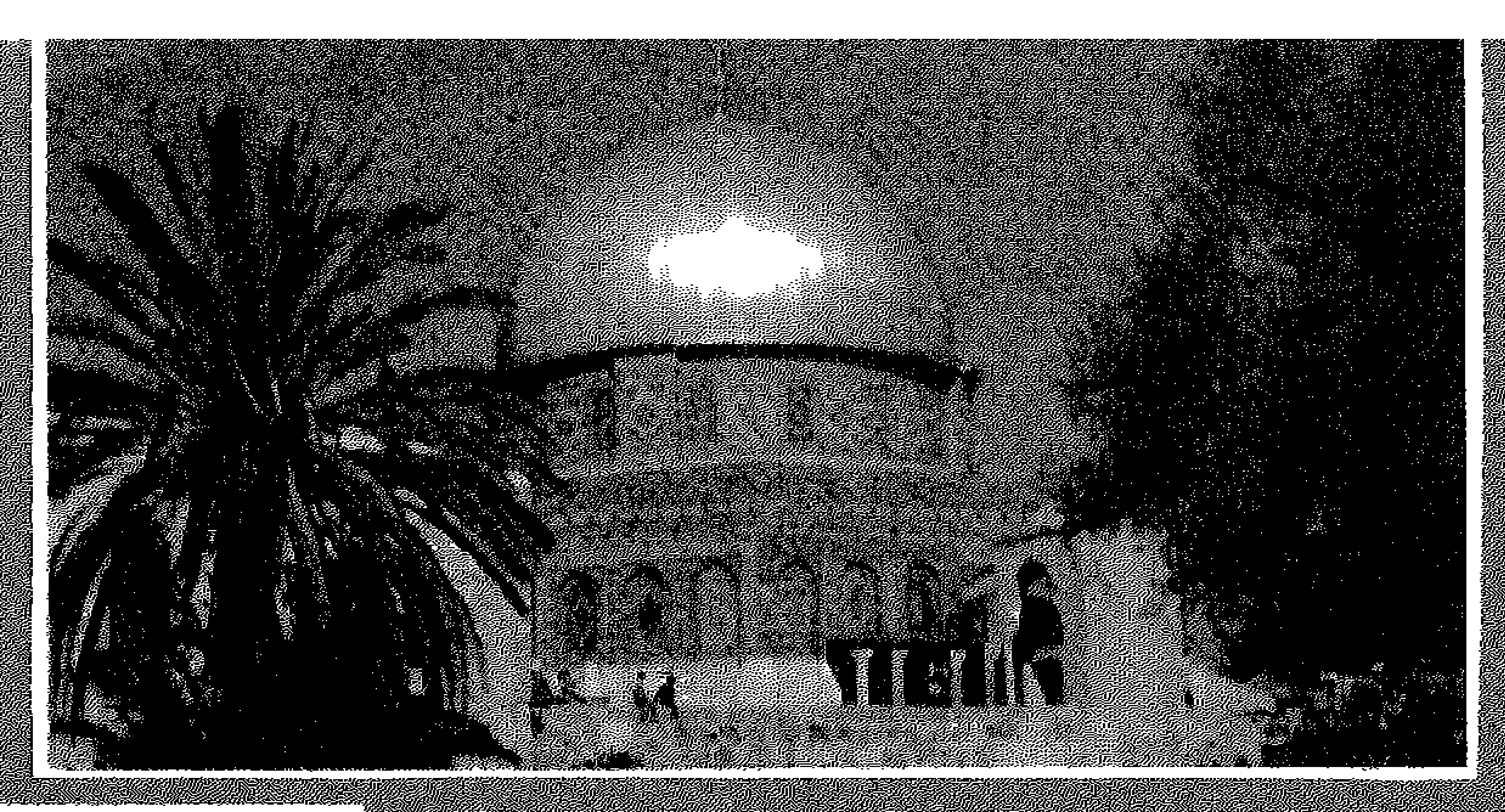
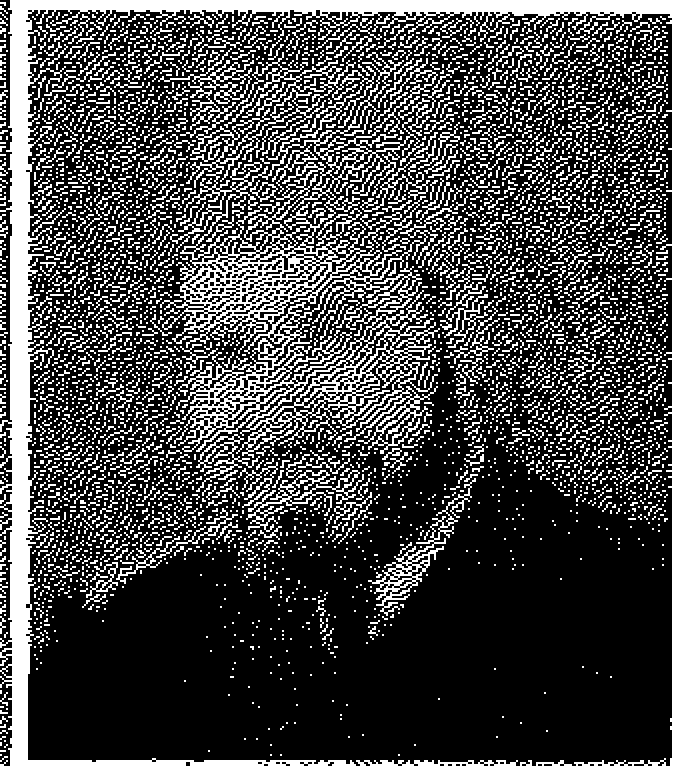
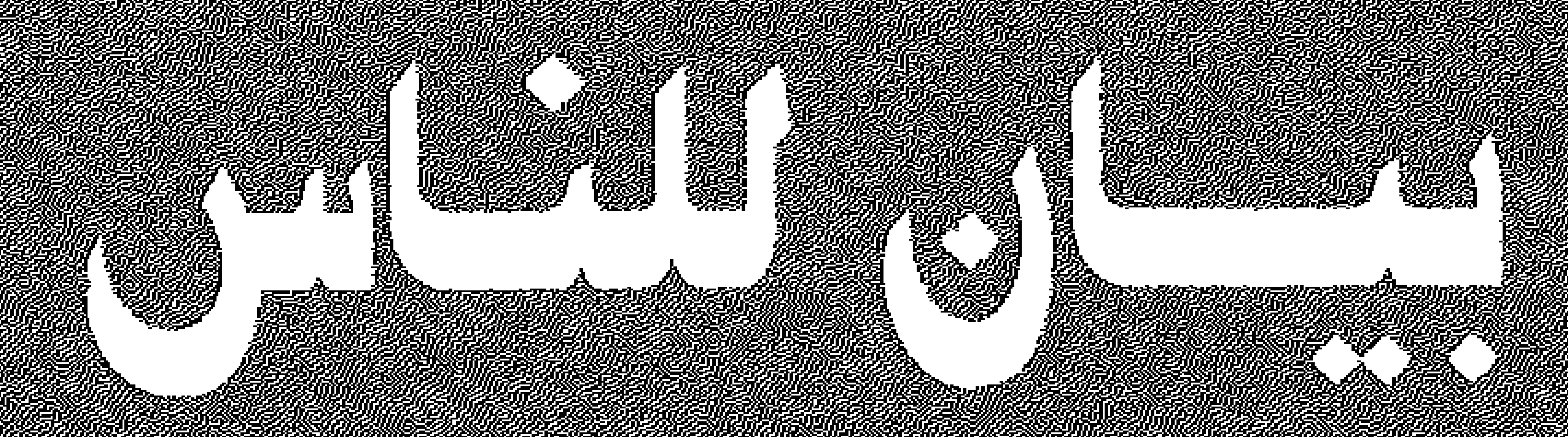
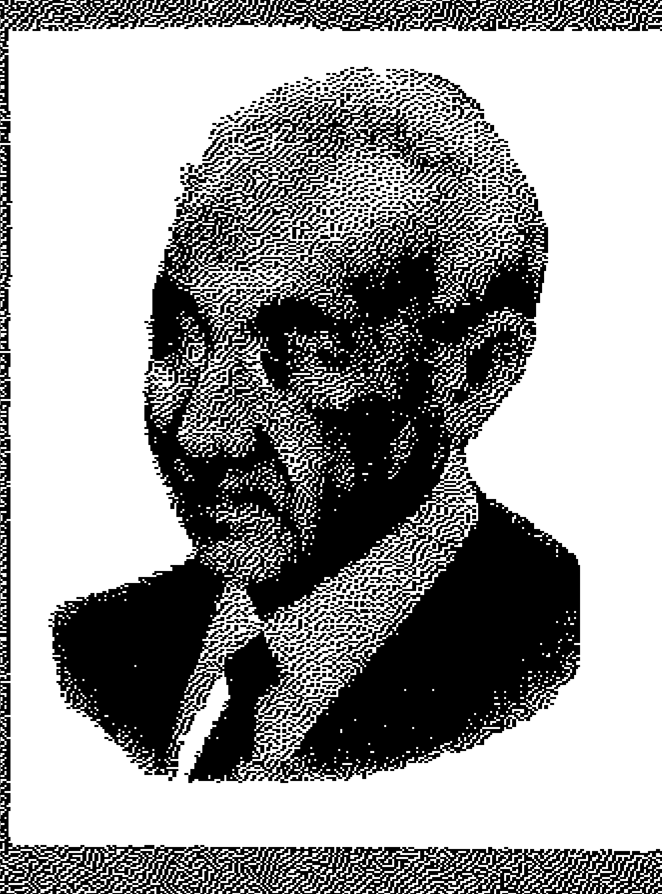






بيان للناس

دكتور/طارق حلمى



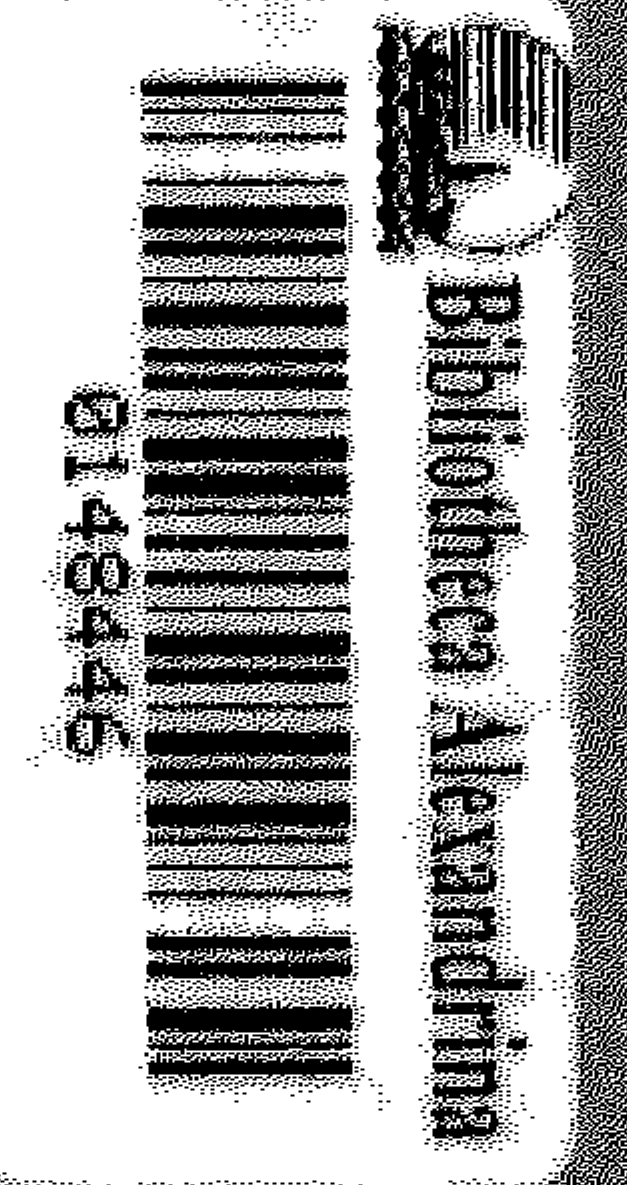
A DECLAR

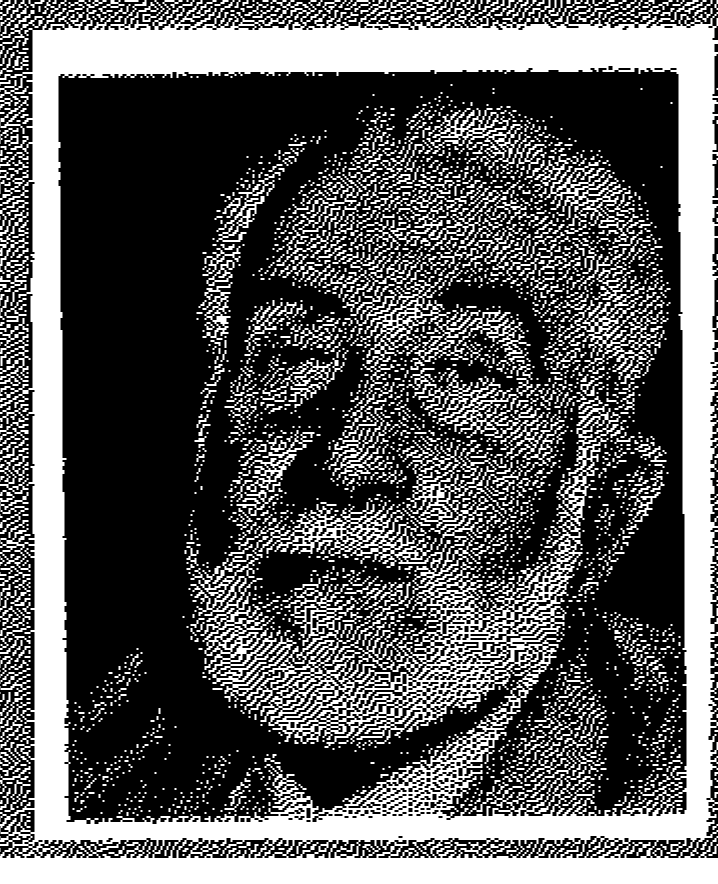
FOR

MANK

BY

Dr. TAREK





بيـــان للنـاس

دكتور/طـارق حلمـى

A DECLARATION
FOR
MANKIND
BY
Dr. TAREK HELMY

الطبعة الأولى
رمضان ١٤١٤ هـ ــ فبراير ١٩٩٤ م

ت : ٨٨٨٦٠٤ المنصورة
ص . ب : ٣٥٦١٨ أتميدة

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأستاذ صاحب الفضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد

ليس من قبيل المبالغة ، وليس من باب التهويل، كما أنه ليس افتئاتاً على الحقيقة ، ولا نسبة الفضل إلى غير أهله ، أن نؤكد ونقول ، بل نهتف وننادى أن الإخوان المسلمين حركة عالمية لها من الامتداد والعمق ما جعلها تستعصى على معاول الهدم ، ولها من الخصائص والسمات ما يجعل مصير البشرية مرتبطاً بمصيرها.

إن دعوة الإخوان هى دعوة الإسلام ، وإن عظمة رجالها تتمثل فى دورانهم مع رحى الإسلام. لقد بات معروفاً للقاصى والدانى ،

والمتحامل والمتعاطف ، حجم ماقدمته هذه الدعوة من تضحيات وإنجازات فى سبيل الله ، وبات مطلوباً أن تتبوأ هذه الدعوة مكانتها العالية حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله .

السيد الأستاذ المرشد ...

إن دعـوة الإخـوان المسلمين هى دعـوة الإسـلام ترتدى ثوباً عصرياً ، إنه الثوب الأنقى والأطهر بين بقية الثياب التى ترتديها سائر الدعوات . لقد فطن الإخوان المسلمون أن الشكل الحضارى الذى يريدون أن يقـدمـوه للناس ليس بالضـرورة هو الشكل الذى قدمه الآباء والأجداد . إن أى أنموذج يمكن أن يقدم للناس مزيداً من الحق ، ومزيداً من العـدل، ومـزيداً من الخيـر ، فإن الإخـوان المسلمين يتبنونه بقطع النظر عن ديانة وملة الشخص أو الأمة التى قـدمت هذا الأنموذج . فلو أن النظام الديمقـراطى الغـربى ، أو النظام الشيوعى البائد ، قدما أنموذجاً عن شكل الحكم لم يعرفه التـاريخ الإسلامى فلا مـانع عند الإخوان من تبنى هذا الأنموذج

مادام يحقق المبادئ العامة التى جاء بها الإسلام من الشورى والعدل وحقوق الإنسان . ولو أن ماركس أو آدم سميث قدما شكلاً من أشكال التعامل فى المال لم يعرفه التاريخ الإسلامى فإن الإخوان يحبذونه مادام يحقق القواعد العامة التى جاء بها الإسلام من احترام الملكية الفردية ، واحترام حقوق العمال ، وحل البيع وحرمة الربا .

السيد الأستاذ المرشد ..

إن الإخوان المسلمين يعرفون حق المعرفة أن «الثوابت » و «المتغيرات » من طبيعة الأشياء . فإذا كانت درجة حرارة الجسم الإنسانى ثابتة عند درجة الحرارة المئوية السابعة والثلاثين فى المتوسط فإن درجة حرارة البيئة متغيرة مابين الحرارة الشديدة والبرودة القاسية مروراً بالمناخ المعتدل . وعلينا أن «نحور » فى ملابسنا لكى نقابل «التغير » فى درجة حرارة البيئة المحيطة من الحرارة والبرودة حتى نحافظ فى النهاية على « ثبات » درجة حرارة الجسم الإنسانى . كذلك فقد أتى الإسلام بمجموعة من «الثوابت» التى قررها

الأصوليون فى علم أصول الفقه مثل : الضرر يزال ، المشقة تستجلب التيسير ، درء المفاسد مقدم على جلب المنافع ، الضرورة تقدر بقدرها ، ماضاق شئ إلا واتسع ، وغيرها من السلاسل الذهبية التى تشكل الثوابت في الشريعة الإسلامية .

إن العدل ، وهو من « الثوابت » فى الشريعة الإسلامية ، يتحقق أحياناً بقطع يد السارق ، وفي أحيان أخرى بعدم قطعها . إن السارق الذى يسرق من حرز ، أو ذلك الذى يروع الآمنين ، هو الذى تقطع يده ، أما من سرق ليأكل ، بعد أن لم يجد من يطعمه، فلا تقطع يده ، كما هو مقرر من أقضية الفاروق عمر بن الخطاب .

السيد الأستاذ المرشد ...

إن الإخوان المسلمين لايديرون ظهورهم للحياة كما يظن البعض ، ولا يحرمون طيبات ماأحل الله كما يروج البعض ، ولكنهم يعتبرون أن المسلمين أولى بهذه الطيبات من غيرهم ﴿ **قل**

من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ، قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾ .

والإخوان المسلمون بما يملكون من وعى سياسى ، وإلهام إلهى، يعلمون تمام العلم ، ويعرفون كل المعرفة ، أن الصهيونية الخبيثة هى التى تسيطر على العالم ، وأن الحكام فى يدها كالأحجار على رقعة الشطرنج كما يقول وليام غاى كار ، وأنها تشكل حكومة العالم الخفية كما يقول شيريب سبيريدوفيتش ، وأنهم يسعون فى الأرض فساداً كما قرر القرآن الكريم .

ولكن الإخوان لايرهبهم مكر الصهاينة ، ولاحقد الصليبيين ، ولا كيد الكافرين **﴿ وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ﴾** .

إن الإخوان يثقون فى وعد الله ﴿ **وعـد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ .

السيد الأستاذ المرشد ..

هذه كلمات لم أقصد أن أقدم بها بين يدى فضيلتكم ، ولكنها اعتراف بالجميل ، وقطرة من بحر المعرفة الإخوانية التى طالما بلت صدانا ، وروت ظمأنا .

السيد الأستاذ صاحب الفضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد

سبق وأن اتفقنا أن الإخوان المسلمين حركة عالمية ، ولذلك فإنها تنظر إلى التغيير من منظور عالمى وليس من منظور قومى أو وطنى . إنها تسعى لإقامة الدولة الكونية لا الدولة القومية . الكون الدولة وليس القوم الدولة . لذلك فإن الإخوان لهم تصورهم عن النظام العالمى الراهن . إن النظرة السطحية إلى النظام العالمى توحى بأنه مكون من مجموعة من الدول ينظم العلاقة بينها ميثاق الأمم المتحدة . ولكل دولة كامل السيادة على أرضها ، ولكل شعب الحق فى تقرير مصيره . وهذه هى النظرة التى يقبل بها البسطاء فى العالم . أما النظرة المتعمقة نوعاً ما فإنها توحى أن العالم تحكمه قطبية أحادية هى الولايات المتحدة ، بعد أن كانت تحكمه قطبية ثنائية

يشاركها فيها الاتحاد السوفيتي الهالك . والذين يقبلون بهذا التصور يرون أن إسرائيل هي ربيبة الولايات المتحدة ، وأنها عصاها الغليظة التي تؤدب بها كل من تسول له نفسه التمرد على الهيمنة الأمريكية .

أما الإخوان فيرون أن الدولة الصهيونية هي التي تحكم العالم من خلال الولايات المتحدة . إن القرارات تصنع في إسرائيل وتصدر في أمريكا .

إن «دون بيرغوس» السفير الأمريكي الأسبق في السودان ، يذكر «أننا كنا في وزارة الخارجية نتندر بأنه إذا أعلن يوماً رئيس وزراء إسرائيل أن الأرض مسطحة ، أصدر الكونغرس خلال ٢٤ ساعة قراراً يهنئه فيه على هذا الاكتشاف »[١] وقد ذكر سناتور أمريكي أن المرء يجرؤ على انتقاد إسرائيل في الكنيست الإسرائيلي أكثر من جرأته على انتقادها في الكونغرس الأمريكي . إن إسرائيل تحكم أمريكا من خلال سيطرتها على المؤسسة السياسية والإعلامية والتعليمية والدينية في الولايات المتحدة . إن الأصوليين الإنجيليين الذين يحكمون الولايات المتحدة منذ

(١) بولي فندلي ـ من يجرؤ على الكلام ـ ص ٤٨ ـ شركة المطبوعات للتوزيع والنشر .

عهد الرئيس جيمى كارتر[1] يؤمنون بنظرية الملك الألفى التى ترى أن المسيح سيعود ليحكم العالم ألف سنة . ولابد أن يسبق هذه العودة سلسلة من الأحداث منها إقامة إسرائيل ، وهدم المسجد الأقصى وإقامة هيكل سليمان فى مكانه . إن الإخوان يرون أن القدس هى محور التاريخ ، وأن الله هو محرك التاريخ .

إن فكرة الجهاد عند الإخوان المسلمين هى فكرة تنتظم كل المعانى الإصلاحية . إن الجهاد عند الإخوان ليس موجهاً ضد السلطة الحاكمة فى البلدان الإسلامية بقدر ماهو موجه ضد إسرائيل الصهيونية وأمريكا التى يحكمها الإنجيليون العسكريون . إن الإخوان بدعوتهم إلى الجهاد ضد الصهيونية وحلفائها إنما يدعون إلى كل المعانى الإصلاحية . إننا لكى نواجه إسرائيل وحلفائها لابد من توحيد القوة ، ونبذ الفرقة . لابد من اتباع سياسة تقشف يشترك فيها الحاكم والمحكوم حتى يمكننا الاستغناء

---

(١) وحتى عهد الرئيس جورج بوش .

عن الأعداء . لابد من استقطاب علمائنا المبدعين وحفزهم على المشاركة في برامج التصنيع المدنى والعسكرى حتى يكون زمام المبادرة والمبادأة بأيدينا لابيد أعدائنا . إن حوافز الإخوان لتغيير النظام العالمى كثيرة ومتعددة . إنهم يريدون أن يقدموا للعالم نموذجاً حضارياً يختلف عن النموذج الذى تقدمه الحضارة الغربية . هذا النموذج قوامه الإيمان بالله ، والدار الآخرة ، وأن لافضل لعربى على عجمى ، ولا لأعجمى على عربى إلا بالتقوى ، خلافاً للنموذج الذى تقدمه الحضارة الغربية الوثنية ذات القشرة المسيحية والتى تنكبت طريق الإيمان وعادت إلى إرثها الرومانى الذى يقدس السيطرة والقهر والسلب والنهب . والإخوان يريدون أن ينتصروا للمستضعفين فى العالم بقطع النظر عن لونهم وجنسهم . والإخوان يسعون لاسترداد أرضنا المغصوبة ، وأموالنا المنهوبة ، وحقوقنا المسلوبة . إن الإخوان المسلمين يهيبون بالمسلمين فى كل العالم ، وبالمستضعفين فى كل الأرض أن

يساعدوهم ويؤازروهم من أجل تغيير النظام العالمى ، ليس من وجهة نظر دينية أو أخلاقية فحسب ، ولكن من أجل مصلحة البشرية كلها . سيقول المرجفون : إنكم تحلمون ، وبخيوط العنكبوت تتعلقون ، وعن مجريات الأمور غافلون ، كأنكم فى القرن العشرين لا تعيشون ، والذرة والقنابل النووية لا تعرفون ، وعن الأواكس والشبح لاتسمعون ، أو تسمعون وآذانكم تصمون فأين عقولكم إن كنتم تعقلون ؟ ، وبروح الود الإخوان يجيبون ، قد علمنا ماتذكرون ، وفهمنا ماتقصدون، سواء ما أظهرتم وسواء ماتضمرون ، إن الإخوان فى وعد الله يثقون ، والنصر والتمكين يستيقنون ، مثلهم كمثل آبائهم الأولين ، النصر قادم ولو بعد حين ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون** ﴾ .

إن الإخوان يعلمون أن الغلبة فى المعارك ليست للأقوى ولكنها للأشجع . إن الأمة التى تجيد صناعة الموت هى التى تملك أشد الأسلحة بطشاً وإرهاباً .

إننا نقول للأمريكان وأسيادهم اليهود كما كان «هوشيه منه» يقول : فى الوقت الذى يقتلون منا عشرة سنقتل منهم واحداً ، ولكننا أصبر على قتل العشرة ، منهم على قتل الواحد . هذا بالمقاييس الإنسانية المجردة . أما المقاييس الإيمانية فلها شأن آخر . إن الإخوان يعلمون أن قوانين الكون «ليست ملزمة» إنها تقول : «غالباً» ولا تقول : «دائماً» . ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ . إن الإخوان يؤمنون بخوارق العادات أو الكرامات أو المعجزات . وهذه هى قوانين استثنائية تظهر فى ظروف استثنائية لأناس هم أيضاً استثناء .

إن القوانين العادية المألوفة تسرى فى الأحول العادية ، أما فى الظروف الاستثنائية التى يسطر فيها الباطل ، ويقعد فى طريق

المؤمنين ، يذبح أبناءهم ويستحل نساءهم ، فإن الله يغير من القوانين ماكان مألوفاً ، كما فعل مع عباده السابقين **﴿ فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال كلا إن معى ربى سيهدين ، فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾** . إن المتخاذلين يسلمون بالسيطرة المستمرة للغرب ، أما الماديون فيقولون : حتى إذا كنا فى قوة الغرب أو أشد واجهناهم ، أما الإخوان فيرون أن قوتهم تأتى من المواجهة لاقبلها. قد يكون من المقبول أن الإنسان إذا فرضت عليه حرب دفاعية أن يخرج ليدافع عن نفسه بقطع النظر عن استعداده المسبق .أما أن يدخل حرباً هجومية فإن المنطق البشرى يؤكد على الاستعداد المسبق ، والتخطيط المحكم ، فكيف كان فعل رسول الله ﷺ ؟ . عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : بعثنا رسول الله ﷺ وأمر علينا أبا عبيدة رضى الله عنه ، نتلقى عيراً لقريش ، وزودنا جرابا من تمر لم يجد لنا غيره ، فكان

أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة ، فقيل : كيف كنتم تصنعون بها ؟ قال : نمصها كما يمص الصبى ، ثم نشرب عليها من الماء ، فتكفينا يومنا إلى الليل ، وكنا نضرب بعصينا الخبط ، ثم نبله بالماء فنأكله ، قال : وانطلقنا على ساحل البحر ، فرُفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم ، فأتيناه فإذا هى دابة تدعى العنبر ، فقال أبو عبيدة : ميتة ، ثم قال : لا ، بل نحن رسل رسول الله ﷺ ، وفى سبيل الله ، وقد اضطررتم فكلوا ، فأقمنا عليه شهراً، ونحن ثلاثمائة ، حتى سمنا ، ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن ونقطع منه الفدر كالثور أو كقدر الثور، ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم فى وقب عينه وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحتها وتزودنا من لحمه وشائق ، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له فقال : « هو رزق أخرجه الله لكم ، فهل معكم من لحمه شئ فتطعمونا ؟ » فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه

فأكله . رواه مسلم

معنى هذا أن رسول الله ﷺ أخرج أناساً فى حرب هجومية ولم يزودهم بشئ إلا جراباً من تمر هو الذى وجده . قد يقول قائل : ولماذا لا ينتظر الرسول ﷺ حتى يجد مايسد جوعتهم ، ويستر عورتهم ، ثم يرسلهم ؟ . ولكن الرسول ﷺ كان يرى أنهم سيجدون ذلك إذا خرجوا فى سبيل الله « وجعل رزقى تحت ظل رمحى » . إن المجاهدين الأفغان قد بدأوا مواجهتهم مع الروس بمدفع واحد كلاشينكوف من الصناعة الروسية . لم يكن منطقهم نتجهز أولاً ثم نواجه ، وإنما نتجهز من خلال المواجهة . إن إنسانا قد يقول لن أنزل البحر حتى أكون سباحاً ، ولن يكون كذلك إلا إذا نزل البحر . مهما قرأت عن فن السباحة ، ومهما شاهدت السباحين ، لن تكون كذلك إلا إذا نزلت البحر ، لتصيب مرة وتخطئ مرات ، وتنجو مرة ، وتشرف على الغرق مرات حتى تتعلم . إن التربية على الجهاد ليست بالخطب

الحماسية ، وليست بتدريس سيرة المجاهدين فحسب ، ولكن لابد من المحك العملى وهو المواجهة . كما أنه لابد لك من نزول البحر حتى تصير سباحاً ، كذلك لابد لك من النزول إلى ساحة الوغى حتى تصير مجاهداً .

وبعد . فليست هذه دعوة للمواجهة ، وإنما هى دعوة للدعوة إلى المواجهة . ولانقصد بالمواجهة مواجهة السلطة الحاكمة فى البلدان الإسلامية ، وإنما مواجهة إسرائيل وحليفتها أمريكا . وما على السلطة الحاكمة إلا أن تركب هذه الموجة إذا أرات البقاء وإلا فلتتنحى أو تنحى .

السيد الأستاذ صاحب الفضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد

سبق أن ذكرنا أن الإخوان المسلمين دعوة عالمية، وأنها تسعى إلى التغيير من منظور عالمي . وغني عن البيان أننا لانقصد بالعالمية الامتداد المكاني فقط ، وإنما نقصد أيضاً الامتداد الإنساني.

إن الإخوان المسلمين هي دعوة «كل الناس» في الأرض «كل الأرض» . إن دعوة الإخوان هي دعوة لكل الناس، مؤمنهم وكافرهم ، مسلمهم وذميهم . لاجرم أنها تسعى إلى سيادة الإسلام وتحكيم شرع الله حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله، بيد أن شرع الله لايعني اغتيال العناصر غير الإسلامية . أيضاً

فإن دعوة الإخوان المسلمين هى حركة مستضعفين ضد مستكبرين ، مؤمنين ضد كافرين حتى تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

إن دعوة الإخوان المسلمين للناس كلهم لاتنحصر فقط فى فردوس الآخرة ، ولكنهم أيضاً يعدون الناس بالحياة الطيبة فى الدنيا . إن الإخوان المسلمين أعلنوها منذ اليوم الأول أن « الرسول قدوتنا » ، والرسول ﷺ لم يعد الناس بالجنة فقط ، وإنما وعدهم أيضاً بكنوز كسرى وقيصر « ياعم : كلمة واحدة لو قالوها لملكوا بها العرب ، ولدانت لهم بها العجم » . إن النبى ﷺ منذ اليوم الأول كان يتبني قضايا الجماهير حيث كانت دعوته تسوى بين السادة والعبيد ، ومعلوم مالهذه الدعوة من بريق بين العبيد المملوكين . من أجل ذلك ضمت دعوة رسول الله ﷺ طلاب الدنيا وطلاب الآخرة . قال الراوى : لم أكن أظن أن فى أصحاب محمد ﷺ من يطلب الدنيا حتى نزول قول الله تعالى ﴿ **منكم من**

يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ . وفى قول شائع « لازالت جيوش المسلمين يؤمها البر والفاجر » وقد قال الله تعالى : **﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ﴾** . وأثنى على قوم فقال عنهم **﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ﴾** . ولهذا قال رسول الله ﷺ « وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى» . كل ذلك جعل أتباع النبى ﷺ يندفعون إلى الجهاد فى سبيل الله متوقعين إحدى الحسنيين إما الاستشهاد والجنة ، وإما النصر والغنائم .

لقد أدرك الإخوان المسلمون أن النفس الإنسانية لاغنى لها عن طلب العاجلة ، مهما كان تعلقها بالآخرة . لذلك فإن دعوة الإخوان المسلمين تنتظم كل من يريد الخير للإنسانية مهما كانت ملته وعقيدته . إنها دعوة ضد الاستكبار العالمى . وضد تعبيد العباد لطائفة من البشر من دون الله . ولكن من انضم الينا

يريد وجه الله فله ثواب الدنيا والآخرة، ومن أراد الدنيا فقط فله مايريد.

وانطلاقاً من هذه القاعدة ، قاعدة تبنى قضايا الجماهير ، فإن الإخوان المسلمين لايرضيهم التوزيع الحالى للدخول . إن ناساً يموتون من التخمة وآخرين يموتون من الفاقة . إن الإخوان المسلمين يسعون لإقامة مجتمع يجد فيه كل فرد الحد الأدنى للحياة الكريمة . روى أبو داوود بإسناد صحيح عن المستورد بن شداد قال : سمعت النبىﷺ يقول : « من كان لنا عاملاً فليكتسب زوجة ، فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادماً ، فإن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكناً » ، وقد ذكرت الدابة فى بعض الروايات ، فالنقل كذلك ينبغى أن يؤمن .

يقول ابن حزم « فرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه وفى اللباس للشتاء

والصيف بمثل ذلك وبمسكن يكنهم من المطر والشمس وعيون المارة » .[1]

من هذه النصوص يرى الإخوان أن دولتهم يجب أن تؤمن لكل إنسان الحاجات الأساسية من مطعم وملبس ومسكن وزوجة ووسيلة نقل ، حتى الذمى لابد أن يؤمن له من بيت المال مايكفيه كذلك.

لذلك فإن الإخوان يرون أن الأوضاع الظالمة الحالية يجب أن يعاد تصحيحها ، ولو أدى الأمر إلى أخذ فضول أموال الأغنياء ودفعها إلى الفقراء . وفى الحديث « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لاظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لازاد له » . فمازال يعدد أنواعاً من الفضل حتى ظننا أن لاحق لأحد منا فى فضل . قال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ولو أمهلته الطعنة الغادرة لنفذ ماقال ـ قال « لو استقبلت

---

(١) سعيد حوى ـ الإسلام ـ مكتبة وهبة ص ٨٥ ـ الجزء الثالث .

من أمرى ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء » .

يجب أن يعاد النظر فى الأجور والمرتبات بحيث نحقق لكل مواطن فى دولة الإخوان المسلمين هذه الحقوق المذكورة . إن بعض فقهاء المذهب المالكى يرى أن يكون أجر العامل نصف ربح العمل . وقد عامل النبى ﷺ أهل خيبر على أساس نصف الغلة .

السيدالأستاذالمرشد..

هذا عن رفع الظلم على المستوى المحلى ، أما رفع الظلم على المستوى العالمى فله حديث آخر .

الخيط الرفيع

كم هى بالية تلك الخيوط التى نتعلق بها ، والتى نسميها الحياة . إنها لاتعدو لحظات زائفة قصيرة ، وآياماً قليلة ، بل لاتعدو كونها سحابة زائفة فى يوم صائف .

ماذا نال طالبوها ، وماذا أدرك عبادها . لقد عادوا صفر اليدين بعد أن عركتهم عرك الرحى بسفالها ، وانقلبوا بمذمة الأولين والآخرين .

ماذا أعطتهم مما أملوه ؟ وماذا وهبتهم مما طلبوه؟ وماذا قدمت لخطابها البائسين ؟. لقد قتلتهم جميعاً، ولم ينج أحد من قضائها المبرم ، وقدرها المحتوم ، وتلك هى القصة منذ البداية .

خلق الله تعالى آدم بيده ، وكرمه تكريماً ، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنة فيحاء فسيحة ، لايجوع فيها ولايعرى ، ولايظمأ فيها ولايضحى، لايمسه فيها نصب ولايمسه فيها لغوب.

فى هذا الجو الهادئ ، وهذه الطبيعة الحالمة ، برز إبليس بكيده الحقير ومكره الرخيص ، ليخرج آدم من الجنة ، ويكون سبباً لشقائه وشقاء ذريته من بعده وقد كان ماكان ووقع المحذور .

عصى آدم ربه وأكل من الشجرة التى أمر ألا يأكل منها ، وقد كان أول عقاب له أن بدت سوأته، وانكشفت عورته ، وطفق يستتر بورق الجنة التى سيحرم منها عما قليل .

لقد أمر آدم بالخروج من الجنة وهبط إلى الأرض هو وزوجته وذريته من بعده . هبطوا لا للسعادة بل للشقاء ، ولا للراحة بل للتعب والنصب ، وهذا هو جزاء الظلوم الجهول ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا** ﴾ وليس بعد الظلم والجهل مذمة تقال.

وبدلاً من أن ينتقل آدم إلى جنة الخلد وملك لايبلى كما

وعده الشيطان ، انتقل الى دار الفناء ، وموطن البلاء ، ومهاد الأموات لا الأحياء .

إى والله ليس هذا تجنياً ، ولا تزييفاً للحقائق ، بل هو الواقع الذى نشهده ، والحقيقة التى لايمارى فيها إلا أعمى القلب ، ضعيف العقل ، غافل عن مجريات الأمور.

إن هذه الحياة الدنيا يلفها الموت ، ويرتع بين جنباتها المرض ، ويجرى فى دمها ميكروب الفناء . لم يقض منها أحد لبناته ، ولم يصل فيها فارس إلى غايته وإن كان الفارس الذى لايشق له غبار.

إن هذه الحياة الدنيا برغم زينتها وبهائها ، وزخرفها ومتاعها ، وليلها ونهارها ، مصيرها العدم والفناء اللهم إلا ماقدم الإنسان من عمل صالح ابتغاء وجه الله﴿ **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً ، المال والبنون زينة الحياة**

الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾ .

ليس بعد بيان الله بيان يقال ، وليس بعد وصف الله وصف يذكر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . إن الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها ، وليكن زادكم فيها زاد المسافر الذى عقد عزمه على الرحيل . اجعلوها خلفكم لا أمامكم ، وتحت أرجلكم وليس من فوقكم ، عندئذ تلح فى طلبكم، وتجتهد فى إرضائكم . لاسبيل للفوز بالدنيا إلا بالزهد فيها ، ولاسبيل لامتلاكها إلا بالاستعلاء عليها ، ولاسبيل لإخضاعها إلا بخلو القلب منها وإن كانت الجوارح بها فى شغل أى شغل . وهذه هى المعادلة الصعبة التى استعصت على الفهم وكانت مزلة لكثير من الأقدام . فقال فريق كيف نزهد فى الدنيا وعيشنا مرتبط بها ، والحياة موقوفة عليها ، بل إن الآخرة لا تستقيم إلا إذا استقامت الدنيا ، ولهذا أقبلوا على الدنيا بقلوبهم وجوارحهم ، يجمعونها من أى طريق غير مبالين بحلال أو حرام . وفريق آخر على

النقيض من الأول قالوا مالنا وللدنيا وهى وشيكة الزوال ، سريعة الانقضاء ، كخيال طيف أو كسحابة صيف، أو كساعة من نهار، ومن أجل هذا أخلوا منها قلوبهم وجوارحهم ، وقنعوا فيها بما جشب من الطعام ، وما خشن من الثياب ، وأداروا لها ظهورهم غير مبالين بها وبأهلها .

والحق أن كلا الفريقين له نصيب من الإفراط أو التفريط . فليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه حتى يصيب منهما جميعاً . وقد قال الله تعالى ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين** ﴾ . فالحقيقة التى لامراء فيها أن الدنيا مزرعة الآخرة ، فمن لم يزرع اليوم لن يحصد غداً، ومن لم يبذر اليوم لن يجنى غداً ، ومن لم يقدم اليوم لن يجد غداً .

حقاً إن الدنيا مزرعة الآخرة ، ومن لم تكن له بداية محرقة لن تكون له نهاية مشرقة . والحق أن الزهد فى الدنيا لايكون بتحريم الحلال ولاإضاعة المال ، ولكن أن تكون بما فى يد اللهأوثق منك بما فى يدك وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو لم تصبك . إن الدنيا يجب أن تكون فى اليد لافى القلب . أى أن تكون غارقاً فى الدنيا حتى أذنيك ومع ذلك فقلبك فى شغل عنها غير مبال بها كما كان عمر بن الخطاب رضى اللهتعالى عنه يقول «الفقر والغنى مطيتان لا أبالى أيهما ركبت » . أوكما كان عمر بن عبد العزيز رضى اللهتعالى عنه يقول أصبحت ومالى اختيار إلا فى مواقع القدر . حقاً إن الخير فى الواقع . والحق أن نظرة المسلم إلى الدنيا تنبثق من فلسفة مؤداها أن كل ما سوى اللهباطل ، كما قال رسول الله ﷺ أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شئ ماخلا اللهباطل . وهذه هى الحقيقة الكبرى التى تسيطر على وجدان المسلم ،

تملك عليه لبه ، وتتخلل خلايا جسمه ، وتجرى منه مجرى الدم في العروق والأحشاء . إن كل مايعتمد في وجوده وبقائه على غيره لاقيمة له في ذاته ، ولاوزن له أى وزن . إن الإنسان المجرد لايذكر في القرآن الكريم إلا على سبيل الذم والتهوين ، ولا يرفع ذكره ، ويعلى شأنه إلا نسبته إلى اللهأو الأعمال الصالحة ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين** ﴾ . ﴿ **والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ . ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً** ﴾ . ﴿ **وإن تعدوا نعمة اللهلا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾ . إن الإنسان إذا أراد أن يكون له ذكر ، وإذا أراد أن يخرج عن دائرة الخسران والهوان فلينتسب إلى اللهبالإيمان ، ولينتسب إلى العمل الصالح بأدائه . كذلك فإن الدنيا المجردة عن معانى الإيمان ، الخالية من

العمل الصالح لاقيمة لها ولا وزن ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ، ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا** ﴾ .وقد قال رسول الله ﷺ « الدنيا ملعونة ملعون مافيها إلا ذكر الله وماوالاه أوعالماً أو متعلماً» . و « لو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء » .

إن الحياة عندما تفتقد الغاية النبيلة ، والهدف السامى ، تغدو عبئاً على صاحبها ، ولا تعدو أن تكون لعباً ولهواً ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون** ﴾ .

خلاصة القول فى هذا المقام أن كل ماسوى الله لايساوى شيئا

فلاقيمة للإنسان ولا للدنيا ولاللآخرة فى ذاتهم ، وإنما يستمد أى مخلوق قيمته بنسبته إلى اللهالحى القيوم . فهو يستمد وجوده من وجود الله، ويستمد قوته من قوه الله، وهو غنى بنسبته إلى الغنى ، عليم بنسبته إلى العليم .

ليس كالمسلم فى الخلق أحد

ليس خلق اليوم بل خلق الأبد

إنما الإسلام فى الصحـــرا

امتهد ليجئ كل مسلم أســد

فالمسلم متخلق بأخلاق الله، جامع بين المتناقضات . فمن يراه فى إقبـاله على الدنيـا يظن أن هذا الرجل لايعـرف غيـرها ، ولايطلب إلاهى ، ومن يراه فى إقبـاله على الآخرة وطلبه لهـا ، يظن أن هذا الرجل ليس من أبناء الدنيـا فى شئ . تراه يخوض معارك هذه الحياة ، سياسية كانت أو اقتصادية أو عسكرية . علمية كانت أو اجتماعية . بل أدبية كانت أو فنية . ويسعى

للوصول إلى أعلى المناصب ، وتسنم أعلى المنابر وهو فى كل هذا إنما يحقق مراد الله، ويسعى فى مرضاته جل شأنه.

إنه يسعى فى ذلك ، ليس لأن ذلك هو مراد نفسه ـ وإن كان كل ذلك من مرادات النفس ومطالبها ـ ولكن لأن هذا هو مراد اللهالعلى الأعلى وهو يسعى أيضاً لإمتاع نفسه وإعطائها حظوظها الحلال من مأكل ومشرب وملبس وغناء ولهو مباح ويكون فى قمة عبادته وأرفع درجاته . إن اللهو فى وقت الكلال والملل أحب إلى اللهمن الجد وإن كان صلاة أو قراءة قرآن إلا الفريضة الواجبة قال على بن أبى طالب رضى اللهعنه «روحوا القلوب تع الذكر».

إن القلوب إذا كلت عميت فلا تعد تفرق بين ذكر اللهوبين لغو الكلام . قال رسول الله ﷺ « إذا نعس أحدكم وهو يصلى ، فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإن أحدكم إدا صلى وهو ناعس لايدرى لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه » . وعن أنس رضى

الله تعالى عنه قال « دخل رسول الله ﷺ المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال : ماهذا الحبل ؟ قالوا : هذا حبل لزينب ، فإذا افترت ـ أى عن الصلاة والذكر ـ تعلقت به . فقال النبى ﷺ: حلوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد » متفق عليه.

إن بعض الناس وخاصة من أصحاب الهمم العالية فى بداية عهده بالدين ، وحداثة عهده بالتعبد ، قد يظن أن الطاقة الإنسانية لاحدود لها ، وأن الإنسان قد يستطيع أن يصل إلى درجة يستغنى فيها تماماً عن كل حظوظ نفسه ، وكل مراد من مراداتها وهذا وهم وشطط فى التفكير . إن نفسك كنفوس الآخرين بالنسبة لك تماماً بل هى أولى بالرعاية والتلطف لأنها الأقرب إليك . إن الأنانية المرفوضة هى التى تعنى التعدى على حقوق الآخرين وإيثار النفس بما هو حق للآخرين . ولايعنى هذا أننا ضد الإيثار ، وتقديم الغير على النفس فى بعض المواطن ، ولكن بشكل لايضر بحقوق النفس ومطالبها . إن الإجحاف بحق النفس حرام كما

الإجحاف بحقوق الآخرين .إن الاستمرار والديمومة لايكونا إلا بمراعاة النفس وحفظ مالها من حق واجب . وفصل الخطاب فى ذلك هو أن تعطى نفسك حقها وتستوفى منها حقوق الآخرين مع بعض الميل إلى حقوق الآخرين.

تعامل مع نفسك بالعدل وتعامل بالفضل مع نفوس الآخرين . افعل الخير لذاته وإن كان الآخرون غير مستحقين . قال رسول الله ﷺ : «إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها » . مامعنى هذا ؟ معنى هذا أن ترويض النفس على فعل الخير قيمة عليا فى حد ذاته وإن لم يستفد منه الآخرون . إن الساعة إذا قامت فحينئذ يبدو للنظر القريب أن لاداعى لغرس شجرة أو إقامة بناء . بيد أن النفوس الكبيرة تفعل الخير لأن هذا من طبيعتها وإن لم يستفد منه الآخرون . بل هو أكثر من ذلك أن النفوس الكبيرة تقدم يد الإحسان لمن يستحقون العقاب ﴿ **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة**

ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾. إن مقابلة الإساءة بالإحسان أمر واجب على ذوى النفوس الكبيرة وخاصة أصحاب الدعوات منهم . لاينبغى للداعية أن يكون رجلاً كالناس . ينبغى أن يعرف بصمته إذ الناس يخوضون، وبكرمه إذ الناس يبخلون ، وبجهاده إذ الناس يتخاذلون، وبعفوه وصفحه إذ الناس يقتصون . إذا قبل من الناس أن يتعاملوا بالعدل فلا يقبل من الداعية إلا الفضل **﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ﴾**. ولا يعنى ذلك أن يصبح الداعية مطمعاً لأصحاب النفوس الخبيثة ، والهمم الدنيئة ، وإنما المطلوب أن يكون أكرم من الناس . فهو بطيء الغضب سريع الرضا ، تسبق رحمته غضبه ، ويغلب حلمه مؤاخذته متأسياً فى ذلك بالمحبوب الأعظم الله رب العالمين **﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن**

يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا﴾.

على الداعية أن يضبط غضبه بالحلم ، وإذا أعطى أرخى لكرمه العنان . وبالجملة فإن الخلق الفاضل هو وسط بين خلقين ذميمين هما الإفراط والتفريط . فالشجاعة وسط بين الجبن والتهور . والكرم وسط بين النزق والبخل **﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾** . فعلى الداعية أن يغضب فى موضع الغضب، ويرضى فى موضع الرضا.

ولكنه يتميز عن الناس بأنه بطئ الغضب سريع الرضا . فهو يغضب للحق ، وغيره يغضب للباطل ، وهو مع ذلك منضبط فى غضبه فلا يصدر عنه ما يشين الرجال . فهو يمهل ولايهمل ويتغاضى وهو يقظان.

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً أخاك

لم تلق الذى لا تعاتبه

فعش واحدا أو صل أخاك

فإنه مقارف ذنبا مرة ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى

ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

ومن ذا الذى ترجى سجاياه كلها

كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

إن موقف المسلم من الدنيا كموقفه من الناس . إن المسلم يحسن إلى الناس ليس لأنهم يستحقون ولكن لأن من طبعه الإحسان ، وإن المسلم يكرم الناس ليس لأنهم يستحقون ولكن لأن من طبعه الكرم . وقد قال رسول الله ﷺ : إنى لأعطى أحدهم المسألة فيخرج يتأبطها نارا فقيل له ولم تعطيهم يا رسول الله ؟ فقال: ماذا أصنع ؟ يأبون إلا أن يسألونى ويأبى الله لى البخل.

إن أناسا يسألون النبى ﷺ أن يعطيهم مما أعطاه الله ، ومع أنهم لا يستحقون العطاء لأنهم يسألون عن ظهر غنى، إلا أن الرسول

الكريم ﷺ أعطاهم ، لأنه لا يليق بصاحب النفس الكبيرة أن يكون بخيلا هكذا يريد الله رب العالمين . إن النفوس الكبيرة من أى ملة ومن أى دين تفعل الخير لأنها تربأ بذواتها عن الدنايا وسفاسف الأمور، إلا أن المسلم عندما يفعل ذلك فإنه يفعل ذلك لأن الله يحب ذلك ، وهو مراد المحبوب وليس لأن نفسه تطلب منه ذلك ، وإن كانت نفسه بالفعل تطلب منه ذلك، إلا أنه يفعل ما يفعل لأنه مراد الله وليس مراد النفس . إنه يعبد ربه ولا يعبد نفسه . قد نجد إنساناً يفعل الخير لذاته وإن كان غير مؤمن بالله واليوم الآخر لأن ذلك خلق العظماء ، ويقف به الحافز لفعل الخير عند هذا الحد الإنسانى. أما المسلم فإنه له حافزاً أكبر . إنه يفعل الخير لأن ذلك من خلق العظماء والله يحب له أن يكون عظيما . فهو لا يقصد العظمة لذاتها ولكن لأن العظمة من مرادات الله العظيم . والله يحب من أحبابه أن يتخلقوا بأخلاقه ، ومن أخلاق الله أنه العظيم . إن موقف المسلم من الدنيا كموقفه

من الناس ، إنه يسعى لامتلاكها ، والسيطرة عليها ، والاستمتاع بطيباتها ليس لأن الدنيا تستحق ، ولكن لأن ذلك من مراد الله رب العالمين ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الأيات لقوم يعلمون ، قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾ .

إن الدنيا فى حد ذاتها لاتعدو متاع الغرور ، كطيف خيال زار الصب فى المنام ثم انقضى المنام وولى الطيف وأعقب مزاره الهجران . إن الدنيا أحلى ما فيها مر ، وأجمل مافيها سراب ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات فى بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد**

يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ .

لقد وجدنا فى هذه الحياة للمعاناة والكبد ، وخياراتنا كلها محصورة فى أخف الضررين وأحلى المرين وأهون الصعبين . لاجرم أن الحياة لاتخلو أيضاً من بعض اللذات الحسية والمعنوية إلا أنها استثناء من القاعدة العامة . إن الدنيا دار عمل وليست بدار جزاء . إن الجزاء الأوفى فى الآخرة وإن كان فى الدنيا بعض الجزاء . إن العمل لو لم يتخلله بعض الراحة يغدو أمراً لايطاق . إن العمال يقطعون مسيرة العمل ببعض الغناء والإنشاد لعله يهون وقد كان صحابة رسول الله ﷺ يرتجزون وهم يحفرون الخندق :

والله لولا الله ماهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأولى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

أبينا .. أبينا .. أبينا

إن العمال أيضاً يقطعون ساعات العمل الطويلة بأوقات للراحة يتناولون فيها الطعام ويحتسون المشروبات ، ويمارسون اللهو المباح للتخفيف من وطأة العمل .كذلك فإن الدنيا دار عمل ، إلا أنها تغدو لاتطاق لو لم يتخللها بعض اللذات الحسية والنفسية . كان من الممكن أن تخلو الحياة تماماً من كل مظاهر البهجة ، وكل علامات اللذة ومع ذلك يكلف الإنسان فيها بالعمل وعندئذ يغدو ذلك في حكم المستحيل . إن الإنسان أضعف من أن يتحمل حياة بهذا اللون ، ولو فرضنا جدلاً أنه تحملها فليس ذلك دليلاً على الكمال . إن الرهبنة والانقطاع عن الحياة ليس من الإسلام في شيء ﴿ **ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها** ﴾. وقد جاء ثلاثة نفر إلى بيوت أزواج رسول الله ﷺ يسألون عن عبادته فكأنهم تقالوها ـ أى استقلوها ـ

فقال أحدهم : أنا أقوم الليل ولا أنام ، وقال الثانى : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الثالث : وأنا لا أتزوج النساء ؛ فلما بلغ

ذلك رسول الله ﷺ قال : إنى لأتقاكم لله وأشدكم له خشية ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء وذلك من سنتى ، فمن رغب عن سنتى فليس منى .

إن الإسـلام يكره الضـعف وإن لبس ثوب الدين ، ويكره التخاذل وإن ارتدى رداء الرهبانية ، ويكره السلبية وإن تمسحت بمسوح التقوى والإخلاص . كان عمر القوى رضى الله تعالى عنه إذا رأى رجلاً يسير فى ضعف وهوان علاه بدرته وقال : «لاتمت علينا ديننا فإن الخشوع لايزيد على مافى القلب». يالها من حكمة عمرية تدل على فهم للإسلام عميق ، واستيعاب لروح الدين دقيق، وراع برعيته شفوق رقيق . وكم كانت عائشة رضى الله عنها مصيبة فى وصفه حين قالت ـ عندما رأت شباباً يسيرون فى تماوت ومسكنة ، فقالت من هؤلاء ؟ قالوا : نساك ـ فقالت رحم الله عمراً ، كان إذا قال أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وكان والله الناسك حقاً .

إن أمة الإسلام لم تؤت إلا من قبل هذه الروح المتخاذلة ، وهذا الفهم للإسلام السقيم . إن القوة هى شعار الإسلام فى كل شئ ، وفى كل وقت حتى فى وقت الدعاء الذى هو أظهر مواقف الخشوع والاستكانة نجد النبى ﷺ يستعيذ بالله من كل مظاهر الضعف والعجز « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » .

ومن عجيب الأمر أن بعض المتدينين عندنا يروجون ، على غير وعى منهم ، لحالة الضعف التى تحياها الأمة الإسلامية سواء على مستوى الفرد أو على مستوى المجموع . إن الناس إذا اشتكوا من الفقر ، أوضجوا من الفاقة ، ولم يجدوا إلا المتدينين لعلهم يجدون عندهم الجواب الشافى، والدواء الناجع ، ومخرجاً من الوضع المتأزم ، لم يجدوا عندهم جواباً إلا أن البلاء بسبب الذنوب ، ولنصبر ولنحتسب وسوف نجد العزاء والسلوى والجزاء العظيم فى

الآخرة . وكأن الإسلام جاء للآخرة وليس للدنيا والآخرة . إن الإسلام نظام متكامل لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ولتحرير الشعوب والأفراد من كل ألوان الرق والعبودية . يجب أن نقول للناس سبب المعاناة هو القعود عن الجهاد وليس القعود عن الصلاة وقراءة القرآن .

إن أعداء الإسلام يسعون لترويج هذا اللون من التدين الذى يقدم الصلاة على الجهاد ، ويرفع الذكر والتسبيح فوق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . نحن لا نقلل من قيمة الصلاة والذكر والتسبيح ، ولا ننفي ارتباط البلاء بالذنوب بل نقرر ذلك ونؤكده . ولكننا نرفض إرجاع معاناتنا وتخلفنا وذلنا إلى ترك الصلاة والذكر ، وننسى أن قعدنا عن الجهاد وعن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وقد قال رسول الله ﷺ : «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله» . ﴿ **يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى**

الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ، إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شئ قدير ﴾ .

إن الصلاة والذكر وقراءة القرآن لن تغنى عنا شيئا إذا قعدنا عن الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . إن أول مايتبادر إلى أذهان البسطاء عندما نقول إن العودة إلى الله هى الحل ، أول مايتبادر إلى أذهان البسطاء هى العودة إلى الصلاة والركوع والسجود ، وتالله إن هذا لأمر جميل بل من أوجب الواجبات إلا أنها لن تغنى عنا شيئاً إذا قعدنا عن الجهاد والإصلاح .

إن ما نعانيه من ضيق الرزق ، وضنك العيش ، وذل واستعباد لايعود إلى قلة الموارد ، أو جدب السنين ، وإنما يعود إلى مانعانيه من نهب واستغلال . إن الفقراء يدعمون الأغنياء على المستويين المحلى والعالمى .

إن نهب واستغلال الشمال لموارد الجنوب لم يتوقف مطلقاً منذ بدأ الغزو الاستعمارى قبل أربعمائة عام . فاستنزاف ثروات الجنوب مازال قائماً ومستمراً بأشكال متنوعة ، واضحة أحياناً ومستترة أحياناً أخرى ، وما إغراق الجنوب بالديون الخارجية سوى شكل من أشكال الاستغلال الاستعمارى ، بيد أنه حتماً ليس بالشكل الوحيد .

فبالإضافة إلى آليات الديون التى تحولت مؤخراً إلى إحدى أهم القضايا الدولية المعاصرة فإن الجنوب يعانى كذلك من استمرار هيمنة الشمال على الموارد الطبيعية والخامات المعدنية وخصوصاً الخامات المولدة للطاقة كالنفط والغاز .

إن تقدم الشمال وتحضره ، وما وصل إليه من تخمة اقتصادية وتقنية ، قام على حساب تخلف الجنوب ونهب ثرواته . إن الاستعمار كان آثماً ولا إنسانياً إلى حد بعيد . لقد كان يعامل سكان المستعمرات معاملة العبيد بل أشد . لقد كان يمتص عرق

العمال ، ودم الفلاحين فى مقابل أجر زهيد لايفى بأدنى احتياجات الإنسان.

إن الجنوب غنى بخاماته وثرواته الطبيعية . ففى الوقت الذى يوجد ٩٠ ٪ من صناعات ومصانع العالم فى الشمال فإن ٩٠ ٪ من المواد الأولية والخامات المعدنية التى تسير هذه الصناعات موجود فى الجنوب ، إن القسم الأكبر من المواد الخام الصناعية كالألومنيوم والكروم والكوبالت والفوسفات والمنغنيز بالإضافة إلى النفط والغاز الطبيعى موجود خارج دول الشمال ، وبالتحديد موجود فى الجنوب . ويعتمد الجنوب اعتماداً كلياً على هذه المواد الأولية ، فهى تشكل ٨٠ ٪ من جميع صادراته ، و٩٠ ٪ من مساهمته فى التجارة الدولية ، وهى مصدر دخله الوحيد ، كما أنها المصدر الوحيد للعملات الأجنبية . لكن رغم غنى الجنوب بهذه الخامات ورغم محوريتها بالنسبة لاقتصادياته إلا أنه لم يستكمل بعد تحرير هذه الثروات الطبيعية من السيطرة الأجنبية ،

ولم يتمكن من فرض سيادته الكاملة عليها . كذلك فإن الجنوب نتيجة افتقاره إلى المعارض العلمية والإمكانات التقنية والكوادر الفنية لم يتمكن من استغلال هذه المصادر ، والحصول على العائد المناسب والسعر الملائم والثابت ، وذلك لشدة تعرض أسعار هذه المواد الأولية للتقلبات العنيفة فى الأسواق العالمية واستمرار انخفاضها النسبى إزاء أسعار السلع المصنعة .

لقد ظلت هذه الخامات عرضة للاستغلال الأجنبى الذى استغل الظروف الإقتصادية والتقنية والبشرية القاهرة للجنوب لترسيخ هيمنته الإقتصادية المباشرة على هذه الثروات ، فالشركات الرأسمالية الإحتكارية مازالت حتى الآن تسيطر على ٦٠ ـ ٨٠ ٪ من إجمالى إنتاج اثنتى عشرة مادة رئيسية من المواد الخام الأولية الصناعية، وبلغت قيمة الاستثمارات الأمريكية وحدها حوالى ٣٥ ألف مليون دولار فى مجالات التعدين التى شهدت نمواً هائلاً يوازى ١٣ ٪ سنوياً منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

والظلم من شيم النفوس فإن تجد

ذا عفة فلعلة لايظلـــــــــــم .

إن الحضارة الغربية حضارة مادية ، دينها الجنس وعقيدتها الدولار . إنها حضارة مادية ذات قشرة مسيحية . إن الرومان لم يتنصروا ولكن النصرانية ترومت . إن الغرب ليس له نصيب من المسيحية إلا الإسم ، هذا إن كان لايزال يحتفظ به .

يقول الأستاذ «جودا» أستاذ الفلسفة الانجليزية فى كتابه «سخافات المدنية الحديثة» .

« إن المدنية الحديثة ليس فيها توازن بين القوة والأخلاق ، فالأخلاق متأخرة جداً عن العلم ، ومنذ النهضة ظل العلم فى ارتقاء ، والأخلاق فى انحطاط ، حتى بعدت المسافة بينهما ، وبينما يتراءى الجيل الجديد للناظر فتعجبه خوارقه الصناعية ، وتسخير المادة والقوى الطبيعية لمصالحه وأغراضه ، إذ هو لايمتاز

فى أخلاقه ، فى شرهه وطمعه ، وفى طيشه ونزقه ، وفى قسوته وظلمه عن غيره ، وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة إذ هو لايدرى كيف يعيش ، وتوالى الحروب الفظيعة الهائلة دليل على إفلاسه ، وأنه يربى نشأه ليموت ، وقد خولت له العلوم الطبيعية قوة قاهرة ، ولكنه لم يحسن استعمالها ، فكان كطفل صغير أو سفيه أو مجنون ، يملكون زمام الأمور ، ويؤتون مفاتيح الخزائن ، فهم لايزيدون على أن يلعبوا بما فيها من جواهر » .

وقال فى موضع آخر « إن فيلسوفاً هندياً سمعنى أطرى حضارتنا ، وأقول أن أحد سائقى السيارات قطع ثلاثمائة أو أربعمائة ميل فى ساعة واحدة على الرمال ، وطارت طائرة من موسكو إلى نيويورك فى عشرين ساعة ، فقال ذلك الفيلسوف الهندى : «إنكم تستطيعون أن تطيروا فى الهواء كالطير ، وأن تسبحوا فى الماء كالسمك ، ولكنكم إلى الآن لاتعرفون كيف تمشون على الأرض » .

وقال فى موضع ثالث من هذا الكتاب :

«انظر إلى الطيارة التى تحلق فى السماء ، يخيل إليك أن صانعيها فى علمهم ولباقتهم فوق البشر، والذين طاروا بها أولاً كانوا فى علو عزمهم وجرأتهم أبطالاً، ولكن انظر الآن إلى المقاصد السيئة التى استخدمت لأجلها الطائرة ، وتستعمل لها فى المستقبل، إنما هى قذف القنابل خصوصاً الذرية، وتمزيق جثث الإنسان، وخنق الأحياء، وإحراق الأجساد، وإلقاء الغازات السامة، وتقطيع المستضعفين الذين لاعاصم لهم من هذا الشر إرباً إرباً .

وهذه إما مقاصد الحمقى، أو مقاصد الشياطين» .

إن تاريخ الغرب تاريخ موصول الحلقات من السلب والنهب والإستغلال. إنهم لصوص يتمسحون بمسوح الدين ، أو يتزيون بزى المدنية . إن الحروب الصليبية شاهد عيان ، ودليل صدق على طبيعة الغرب الاستعمارى . إنها لم تكن حرباً دينية بقصد تحرير

بيت المقدس من الكفار «المسلمين» كما زعموا بقدر ماكانت حرباً من أجل المنافع المادية والمآرب الاقتصادية .

قـبح الله الذين لايؤمنون ، ولايؤتون الزكـاة ولا يصلون، ولايطعمون المسكين ولايحضون ، ولايأمرون بالمعروف ولايفعلون، ويضمرون الكفر بالإثم والعدوان يتناجون ، ويسعون فى الأرض فساداً والله لايحب المفسدين .

* * *

الإخوان المسلمون

الإخوان المسلمون ، ما الإخوان المسلمون ، قوم يحبون الله ورسوله ، وينصرون الحق والفضيلة، ويوالون المؤمنين من عباد الله. تاريخهم أطهر من ماء الغمام ، وجهادهم أوضح من الشمس فى رابعة النهار ، ودعاؤهم ﴿ **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** ﴾ . يريدون تحكيم شرع الله في عباد الله ، والشريعة عندهم أشمل من أن تنحصر فى قطع الأيدى أو جلد الظهور . وإنما الشريعة عندهم هى تعبيد الناس لله رب العالمين ، مؤمنهم وكافرهم ، مسلمهم وذميهم ، غنيهم وفقيرهم ، أبيضهم وأسودهم﴿**حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾.

والإخوان جماعة من المسلمين وليسوا جماعة المسلمين بمعنى أن الخارج عنهم ليس خارجاً عن الإسلام كما فى الحديث «ومن شذ عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه » .

لقد سقطت الخلافة الإسلامية على يد جمعية الاتحاد والترقى عام١٩٢٤م ، وتمت علمنة الدولة التركية ، وفرض السفور على النساء ، واستبدلت الحروف العربية بالحروف اللاتينية فى اللغة التركية ومنع الجهر بالآذان ، وبصفة عامة قامت محاولة لمحو كل مظاهر الإسلام فى تركيا عاصمة الخلافة الإسلامية . وقد كان هذا بعد أن أمل المسلمون فى كل أنحاء العالم خيراً فى مصطفى كمال أتاتورك بعد انتصاره على اليونان حتى أن المسلمين أطلقوا عليه الفاتح أو الغازى وقد مدحه أمير الشعراء أحمد شوقى فقال :

الله أكبر كم فى الفتح من عجب

ياخالد الترك جدد خالد العرب

ولكن مالبث هذا الزفاف أن انقلب إلى مأتم بعد إسقاط الخلافة .

قال أمير الشعراء ناعياً الخلافة :

عادت ليالى العرس رجع نواح

ونعيت بين معالم الأفراح

كفنت فى يوم الزفاف بثوبه

ودفنت عن تبلج الإصباح

فى هذه الظروف المفجعة ، وفى هذه الأوقات العصيبة فى حياة الأمة الإسلامية قيض الله تعالى لأمة الإسلام شاباً غيوراً ، ذا همة عالية ، ونفساً كبيرة ، أقلقه واقع الأمة الإسلامية التعس، وأفزعه ما آل إليه حالها من ضعف بعد قوة ، وذل بعد عزة ، وهوان بعد نصر وتمكين .

التفت حسن البنا حوله فوجد المسلمين شيعاً وأحزاباً ، فالعلماء قد أصابهم الإحباط إلا ما رحم ربى ، والسياسيون لاهم لهم إلا السلطة بقطع النظر عن السبيل إليها ، وإذا كان هذا هو حال العلماء والأمراء فكيف يكون حال الدهماء ؟ .

يقول الإمام البنا فى «مذكرات الدعوة والداعية» : «لقد قامت تركيا بانقلابها الكمالى ، وأعلن مصطفى كمال باشا إلغاء الخلافة ، وفصل الدولة عن الدين فى أمة كانت إلى بضع سنوات فى عرف الدنيا جميعاً مقر أمير المؤمنين ، واندفعت الحكومة التركية فى هذا السبيل فى كل مظاهر الحياة .

ولقد تحولت الجامعة المصرية من معهد أهلى إلى جامعة حكومية تديرها الدولة وتضم عدداً من الكليات النظامية ، وكانت للبحث الجامعي والحياة الجامعية حينذاك فى رؤوس الكثيرين صورة غربية : مضمونها أن الجامعة لن تكون جامعة علمانية إلا إذا ثارت على الدين وحاربت التقاليد الاجتماعية المستمدة منه ، واندفعت وراء التفكير المادى المنقول عن الغرب بحذافيره ، وعرف أساتذتها وطلابها بالتحلل والانطلاق من كل القيود .

ولقد وضعت نواة «الحزب الديمقراطى» الذى مات قبل أن يولد ولم يكن له منهاج إلا أن يدعو إلى الحرية والديمقراطية بهذا

المعنى المعروف حينذاك : معنى التحلل والانطلاق .

وأنشئ فى شارع المناخ مايسمى المجمع الفكرى، تشرف عليه هيئة من التيوصوفيين ، وتلقى فيه خطب ومحاضرات تهاجم الأديان القديمة وتبشر بوحى جديد ، وكان خطباؤه خليطا من المسلمين واليهود والمسيحيين وكلهم يتناولون هذه الفكرة الجديدة من وجهات النظر المختلفة .

وظهرت كتب وجرائد ومجلات كل مافيها ينضح بهذا التفكير الذى لاهدف له إلا إضعاف أثر أى دين ، أو القضاء عليه فى نفوس الشعب لينعم بالحرية الحقيقية فكرياً وعملياً فى زعم هؤلاء الكتاب والمؤلفين .

وجهزت « صالونات » فى كثير من الدور الكبيرة الخاصة فى القاهرة يتطارح فيها زوارها مثل هذه الأفكار ، ويعملون بعد ذلك على نشرها فى الشباب وفى مختلف الأوساط» .[1]

---

(١) مذكرات الدعوة والداعية للإمام الشهيد حسن البنا ـ دار الشهاب ص ٥٣ ـ ٥٤ .

لابد إذن من عمل إيجابى يعيد للناس الثقة فى إسلامهم ، ويستنقذهم من المستنقع الآسن الذى يسبحون فيه ، بعد أن تركوا كتاب الله وراءهم ظهرياً ، وأهملوا هديه ، وتنكروا لتقاليده واستبدلوا بها تعاليم الكفرة والملاحدة الذين لايؤمنون بدين.

ولم تكن هذه بالمهمة السهلة ، ولا بالعمل الهين الذى يجد له الكثير من الأنصار والأتباع .

إن الأمر أكبر من أن يكون مؤتمرات تلقى فيها الخطب والمحاضرات ، أو ندوات تناقش فيها مختلف الآراء ، أو مقالات ترصع بها أعمدة الصحف ، وإن كان لاغنى عن كل تلك الأمور .

إن الأمر يحتاج إلى رجال نبلاء ، وفتيان أقوياء، ونساء قانتات حافظات يحملون أرواحهم على أكفهم لتقديمها قرباناً إلى الله رب العالمين . إن كلماتنا تبقى كعرائس من الشمع حتى إذا ضحينا فى سبيلها دبت فيها الحياة كما قال الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله . لابد من دم يهراق ، وجهد يبذل ، وعرق يسيل . لابد أن تكتحل

عين الدنيا بلون جديد من الشباب يعرف بجده إذا الناس يلعبون ، وبحزنه إذ الناس يفرحون ، وبصمته إذ الناس يخوضون ، وبأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر إذا الناس يتهيبون .

يقول الإمام الشهيد حسن البنا مخاطباً الشباب : « لقد آمنا إيماناً لاجدال فيه ولاشك معه ، واعتقدنا عقيدة أثبت من الرواسى وأعمق من خفايا الضمائر ، بأنه ليس هناك إلا فكرة واحدة هى التى تنقذ الدنيا المعذبة وترشد الإنسانية الحائرة وتهدى الناس سواء السبيل ، وهى لذلك تستحق أن يضحى فى سبيل إعلانها والتبشير بها وحمل الناس عليها بالأرواح والأموال وكل رخيص وغال، هذه الفكرة هى الإسلام الحنيف الذى لاعوج فيه ولاشر معه ولاضلال لمن اتبعه ».[1]

« يخطئ من يظن أن جماعة الإخوان المسلمين جماعة دراويش قد حصروا أنفسهم فى دائرة ضيقة من العبادات

(١) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ـ دار الشهاب ص ١٣ .

الإسلامية ، كل همهم صلاة وصوم وذكر وتسبيح ، فالمسلمون الأولون لم يعرفوا الإسلام بهذه الصورة ، ولم يؤمنوا به على هذا النحو ، ولكنهم آمنوا به عقيدة وعبادة ، ووطناً وجنسية ، وخلقاً ومادة ، وثقافة وقانوناً ، وسماحة وقوة . واعتقدوه نظاماً كاملاً يفرض نفسه على كل مظاهر الحياة وينظم أمر الدنيا كما ينظم الآخرة . اعتقدوه نظاماً عملياً وروحياً معاً فهو عندهم دين ودولة ، ومصحف وسيف .

وهم مع هذا لا يهملون أمر عبادتهم ولا يقصرون فى أداء فرائضهم» . [1]

إن الإخوان المسلمين يعتبرون أن الوظيفة الرئيسية للإنسان فى الأرض أن يحكم هذه الدنيا، وأن يسير أمورها باسم الله . يكتشف مافيها من كنوز، ويستكنه ما فيها من أسرار، ويشق الأرض شقاً لكى يكشف عن عجيب صنع الله ، وينعم بخيرات الله . يجب أن

---

(١) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ـ دار الشهاب ص ٨٧ .

نصنع فردوساً على هذه الأرض نحاكى به فردوس الآخرة دون أن ينقص ذلك ما لنا فى فردوس الآخرة من نصيب ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ، قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون** ﴾ .

ولنضرب مثالاً لما سبق لنفترض رئيس مجلس إدارة لإحدى الشركات الكبرى طلب من مديره التنفيذى أن يذهب إلى موقع العمل وينفذ الخطة المتفق عليها بينهما والتى بها يسير العمل على أكمل وجه . وقد وجه الرئيس مديره التنفيذى ، ولفت نظره إلى أنه سيواجه صعوبات جمة فى العمل لا قبل له بها من تلقاء نفسه . وتتمثل هذه الصعوبات فى إدارة عمال مشاكسين ، وفى التعامل مع ممثلى الحكومة وفى طبيعة العمل نفسها وغير ذلك

الكثير . من أجل ذلك طلب الرئيس من مديره التنفيذى أن يتصل به مرات كثيره حتى يطلعه على الموقف كأنه يراه رأى العين . على المدير أن يرفع إلى الرئيس شكاواه ومعاناته وما يقابله من صعوبات ، وفى الوقت ذاته يلتمس منه النصح والتوجيه ، ويستمد منه العون والتسديد.

إن المدير التنفيذى يمكن أن يكون واحداً من ثلاثة رجال . إما أن ينفذ تعليمات الرئيس فيقوم بتنفيذ الخطة المرسومة ويتصل به كما أراد لكى يرفع إليه تقارير عن طبيعة العمل وما يقابله من مشكلات وصعوبات لا ينفك عنها العمل ويطلب منه العون على ذلك بالقول والفعل وبذلك يسير العمل على مايرام وتتحقق النتائج المنشودة والغايات المطلوبة . وهذا مدير آخر يرى أنه يستطيع أن يدير العمل من تلقاء نفسه دون الرجوع إلى رئيس مجلس الإدارة فلا يتصل به كما طلب منه ويؤثر أن يتخبط برأيه الفاسد وعقله الكليل . الصنف الثالث من المدراء يستعذب الحديث مع

رئيس مجلس الإدارة فيكثر من الاتصال به ، وبدلاً من أن يقضى يومه فى إدارة العمل ومراقبة العمال والصبر على مكابدة أخلاقهم المرذولة ، إذا به يعتزل العمل ويترك العمال دون حسيب أو رقيب، ويصرف معظم الوقت فى مخاطبة الرئيس أو قراءة خطاباته . والنتيجة الطبيعية لذلك هي أن العمال يهملون ، وفى أداء واجبهم يقصرون ، وفى الإضطلاع بما فرض عليهم يفرطون ولا يشتغلون، ولا شك أن الذى يستحق الجزاء الحسن ، والثواب الجزيل هو الصنف الأول ، أما الصنفان الآخران فلا يستحقان إلا العقاب ، جزاءً وفاقاً .

إن وظيفة الإنسان فى الأرض كما علمنا الله ، وكما يراها الإخـــوان ، هى أن يعم حكم الله على الناس كل الناس ، فى الأرض ، كل الأرض ، حتى ينعم الناس ، مؤمنهم وكافرهم ، مسلمهم وذميهم ، أبيضهم وأسودهم ، بعدل الإسلام ، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . ولا شك أن شياطين الجن

والإنس لايرضيهم ذلك ، ولا يحبون أن يروا الناس وقد خرجوا من الظلمات إلى النور بفضل الإسلام الحنيف . لذلك فهم يحشدون جندهم ، ويجيشون جيوشهم ، ويجندون نساءهم وأطفالهم ، ويسعون في الأرض فساداً والله لايحب المفسدين.

إنهم لا يريدون إلا أن يشقى الناس بدينهم ، ويكفروا بربهم ، ويتبعوا أهواءهم ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، والله لايهدى القوم الظالمين** ﴾ . إن شياطين الجن والإنس قد أخذوا على أنفسهم العهد ﴿ **أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشئ يراد** ﴾ . وهم قد طابت نفوسهم للكيد للإسلام وأهله ، والكفر بالله والصد عن سبيله . والإخوان يرون أنهم لابد أن يواجهوا ذلك المكر ، ويردوا ذلك الكيد في نحور أصحابه . إنهم يرون أن وظيفتهم هي مصارعة الظالمين ، ومقارعة المستكبرين ، وإرغام الطغاة والمستبدين . ولكن من يقوى على هذا العمل ؟ ومن يقدر على عداوة الشياطين ؟ .

إن الإخوان يرون أن الله قد انتدبهم لذلك ، كما انتدب سائر المسلمين ، ومادام قد انتدبهم فلابد أن يكون فى معيتهم ، إن سألوه أجابهم ، وإن استنصروه نصرهم ، وإن استعاذوا به أعاذهم من كل شيطان رجيم .

إذن فوظيفة الإنسان الكبرى كما يراها الإخوان هى أن يصارع الكفر والكافرين ، والظلم والظالمين، والشر والشياطين . ولكن الإنسان لا طاقة له على مواجهة هذا الطابور الطويل من الأعداء الألداء إلا بالاستعانة بالله على ذلك . من أجل ذلك كانت الصلاة ، وكان الذكر والدعاء .

يجب إذن أن تفهم وظيفة الصلاة ، ووظيفة الذكر والدعاء ، فى إطار هذه الوظيفة الكبرى للإنسان . إن الشيطان قد قعد للإنسان فى طريق الخير ﴿ **قال لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن**

شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ . الوظيفة الأولى للإنسان إذن هي أن يلتزم بالحق فى أقواله وأفعاله ، وأن يوفر لهذا الحق قوة تحميه «وإن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » كما قال الخليفة الثالث عثمان بن عفان .

كم أحب الإخوان من كل قلبى وددت لو أفتديهم بكل ما أملك . إنهم يمثلون التضحية فى أسمى صورها ، والأخلاق الفاضلة فى أعلى درجاتها . إنهم يمثلون الرجال المؤمنين **﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾** .

إنهم يمثلون صدق القول ، ونبل الهدف ، وعفة اللسان . كم نال منهم الطغاة ، وكم بطش بهم الجبابرة والمارقين ، فما لانت لهم قناة ، ولا قعدوا عن جهاد أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر.

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

لقد قذف بهم عبد الناصر فى غياهب السجون دون ذنب أو جـريرة إلا أن يقـولوا ربنا الله . وليت الأمـر وقف على حـبس حـرياتهم ، وتكمـيم أفـواههم، والحـيلولة بينهـم وبين ذويهـم وأحبائهم ، بل تعدى ذلك إلى أمور تتفطر لها الأكباد ، وتتقطع نياط القلوب ، وإليك ما يقصه الأستاذ محمود عبد الحليم فى موسوعته القيمة « الإخوان المسلمون..أحداث صنعت التاريخ » :

« فى أحد أيام هذه الفتـرة العـصيبـة نعق ناعق البوم بأن تفـتح الزنازين ويصطف المعـتقلون وقوفـاً بداخلهـا لأن القـائد ـ قـائد السجن الحربى ـ سيمر . وفتحت الزنازين وامتثلنا للأمر ، وأخذ حـمزة البسيونى ومعه كلبه الذى قد بلغ ارتفاعه قامة الرجل والذى يعتبره حمزة البسيونى أشرس وسائل التعذيب حين يطلقه على معتقل لينهش لحمه ، وهو يكاد لضخامته أن يكون فى قوة الأسد وبطشه .

ومر الرجل. ولا أدرى كما لم يكن أحد يدرى لماذا كان يمر،

ولا نزال حتى هذه اللحظة لا ندرى لم كان يمر . ذلك أن مروره هذا قد أسفر عن شئ عجيب لايفهم له معنى ، ولا يدرك له مغزى ، ولا يقوم على أية قاعدة .

أما الذى يخصنى فى هذا الشئ العجيب أنه حين مر على زنزانتنا وهى فى الدور الثالث من السجن ، وكنا فى الزنزانة ثمانية أفراد .. فإنه نظر فى وجوهنا ثم أشار إلىّ فتقدمت إليه ، فأمر أحد الجنود الذين معه بمصاحبتى إلى فناء السجن ؛ حيث وجدت ستة من الإخوان لا أذكر منهم الآن إلا أخاً واحداً هو الدكتور مصطفى عبد الله . وكان الدكتور مصطفى عبد الله إذ ذاك إما أنه بالمعاش وإما أنه قد شارفه . وكان آخر منصب له قبل الاعتقال مفتش صحة محافظة القليوبية »[1] .

---

(١) الإخوان المسلمون .. أحداث صنعت التاريخ ـ الجزء الثالث ـ محمود عبد الحليم ـ دار الدعوة ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٨٥م ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦ .

وخصصت لهم سبع زنازين متجاورة فى أحد أضلاع الدور الثانى من السجن ، وأدخل كل منهم زنزانة وحده بعد أن أغلقت عليه إغلاقاً محكماً .

أما الكلب المتوحش فقد حبس أيضاً ولكن مع أكبر السبعة سناً ، وأضعفهم جسماً وأقربهم للشيخوخة والفناء . ولك أن تتخيل ما يفعله كلب متوحش حبس مع رجل ضعيف فى زنزانة محكمة الإغلاق بعد أن حبس عنه الطعام عدة أيام .

ولكن ما حدث خيب الظنون ، وحير العقول ، وألجم الألسنة وترك أعقل الناس بلا صواب .

قال الحارس : « لما أدخلت للدكتور طعام العشاء أمس ثم نظرت من ثقب الباب فرأيت الكلب جاثياً أمام الباب ووجهه نحو الباب ، لا يتحرك كأنه يحرس الزنزانة من داخلها .. ورأيت الدكتور يقدم الطعام للكلب والكلب لايقربه ، والدكتور يكلم

الكلب كأنه إنسان ، ويعزم عليه أن يأكل والكلب يرفض .. ويأكل الدكتور ثم يقدم للكلب بقية الطعام فيأكله الكلب .. ويقدم له الماء فلا يمد فمه فى الجردل ، وينتظر حتى يتوضأ الدكتور فيلحس الكلب الماء الذى وقع فى أثناء الوضوء على الأرض . ويقضى الدكتور الليل يصلى والكلب جاثم أمام الباب يحرسه .. والدكتور حين غلبه النوم فيضع جنبه أنظر فأرى الكلب فى حالة تحفز نحو الباب »[1] .

إن قدرة الله فوق قدرة البشر ﴿ **والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .

إننا لانرهب القوة المادية ، ولا نخاف بطش الظالمين ، وطغيان المستكبرين . ﴿ **قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون** ﴾ .

---

(١) السابق ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨ .

ولاتك ممن طيشته طروســـه بحيث استقلت عقله واستبدتِ

فإن وراء العقل علما يجل عن مدارك غايات العقول السليمـةِ

إن الله من خلف العقل ، تدركه عين البصيرة لاعين البصر ، ويشهده القلب الخفاق والروح الهيمان ، والمحب الظمآن الذى يطلب بلاً لصداه **﴿ لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾** . من أراد أن يبصره بعينه ضل ، ومن اكتفى فى الاستدلال عليه بعقله زل ، ومن فتح عين بصيرته أبصره من غير نكران أو جحود .

إن كل علومنا ومنجزاتنا الحضارية والإنسانية لم يكن طريقنا فى الوصول إليها هو الحواس والعقل فقط ، وإنما هناك بعد ذلك طريق ثالث ألا وهو الإلهام . هذا الإلهام هو المسئول عن الإبداع والابتكار . فإذا كان الإلهام هو الطريق إلى الإبداع الإنسانى ، فإنه كذلك هو الطريق إلى معرفة الله ، واستبصار آلائه ونعمائه .

لئن كانت الإنسانية قد أفادت كثيراً من تجريبية فرنسيس بيكون ، ومن عقلانية ديكارت ، فإنها كذلك لاغنى لها عن الإلهام الإلهى ، والوحى السماوى . إن هناك رؤية قد تثبتها الحواس إلا أن الرؤية العقلية تكذبها ، وهناك كذلك رؤية قد تثبتها الحواس ويؤكدها العقل ، إلا أن الإلهام يكذبها . إن الحواس قد تريك السراب ماءً ، فإذا جاء العقل أثبت أن مايلمع ليس ماءً ولكنه سراب ، وأن الحواس قد خدعتك . كذلك فإن الحواس قد تخبرك أن الكثرة تغلب القلة ، ويأتى العقل ليؤكد ذلك حتى إذا جاء الوحي والإلهام قال ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾ . نعم إن البصيرة قد ترى ما لايراه البصر وما يعيى عن فهمه العقل ، وما تحار فيه السليمة من الألباب . إن العقل المذموم ، والفكر المغبون ، هو الذى يبنى أحكامه ، ويشيد نتائجه فقط على معطيات الحواس . أما العقل الناضج ، والفكر السليم ، فهو الذى يدرك أن هناك مصدراً آخر

للمعلومات وهو الإلهام أو الوحي . إن هناك كائنات تدركها حاسة البصر مثل الموجات الصوتية ، وهناك كائنات تدركها حاسة السمع مثل موجات الصوت ، وهناك أشياء تدرك بالذوق مثل حلاوة الطعام أو مرارته . ولا يمكن لإنسان ما أن يدعى أن موجات الضوء غير موجودة مستدلاً على ذلك بأن حواسة السمع فيه لاتدركها . إن هذا استدلال خاطئ لأن موجات الضوء يستدل عليها بحاسة الإبصار وليس بحاسة السمع ، ولا يمكن أيضاً لإنسان أن يدعى أن موجات الصوت غير موجودة بدليل أنه لا يراها بعينه . هذا أيضاً استدلال خاطئ لأن موجات الصوت يستدل عليها بحاسة السمع وليس بحاسة البصر . إذن، كل شئ فى الوجود يستدل عليه بحاسة إنسانية متميزة . أما الموجات الكهرومغناطيسية مثل موجات الراديو والتليفزيون ، فإنها يستدل عليها باستقبالها بواسطة أجهزة مثل الراديو والتليفزيون .ولا يمكن لشخص أن ينكر وجود هذه الموجات لأنه لايستقبلها مباشرة

بواسطة حاستى السمع والإبصار ؛ ذلك لأن الاستدلال عليها إنما يتم بواسطة أجهزة ربما كانت امتداداً لحاستى السمع والإبصار مثل جهازى الراديو والتليفزيون .

ويصبح من سفه القول إنكار الموجات الكهرومغناطيسية بحجة أن الحواس الإنسانية لاتدركها بشكل مباشر .

بعد هذه المقدمة نقول إن الإنسان يمتلك حاسة شريفة تدرك مالا يدركه السمع والبصر والذوق واللمس والشم ، تلك الحاسة هى القلب أو البصيرة ﴿ **وإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾ . هذه الحاسة الشريفة تدرك عالم الغيب الذى لاتدركه الحواس الخمسة المتعارف عليها. هذه الحاسة الشريفة تدرك أن لهذا الكون خالقاً مدبراً، وأن وراء الحياة الدنيا الحياة الآخرة،وأن الإنسان لايقوم وحده كما قال كريسى موريسون صاحب كتاب" Man doesn't stand alone "

هذه الحاسة الشريفة تستقبل علومها من العالم الغيبى غير المنظور . إنك لو ضبطت مؤشر جهاز الراديو على إذاعة صوت العرب ، فإن جهازك يستقبل البث الإذاعى الذى ترسله إذاعة صوت العرب . أما لو أزغت المؤشر عن هذه الإذاعة فإن جهاز الراديو لايستقبل البث الإذاعى لصوت العرب وإن كان البث موجوداً بالفعل .

أما لو حدث تلف بالجهاز ، فإن الجهاز يصير عاطلاً عن الاستقبال من إذاعة صوت العرب أو من غيرها من الإذاعات ، وعندئذ فالعيب عيب الجهاز الذى تلف وليس عيب الإذاعة التى لاتبث . كذلك فالقلوب المنكرة أو الجاحدة لوجود الله هى التى عميت فصارت لا تدرك الشمس فى وضح النهار .

وقل للعيون الرمد إيـاك أن تـرى

سنا الشمس فاستغشى ظلام اللياليا .

هناك قلوب قد عميت تماماً فهى تنكر عالم الغيب بالكلية ،

وهناك قلوب قد زاغت عن أن تستقبل من الله العظيم ، فباتت تستقبل من الشيطان الرجيم ﴿ **ولكلٍ وجهة هو موليها** ﴾ .

إن الإنسان له بعد حقيقى وبعد تشريحى . أما البعد التشريحى فهو ذلك الحيز من الفراغ الذى يشغله ، وأما البعد الحقيق فهو ذلك المدى المكانى والزمانى الذى تصل إليه الروح . إن المصباح الكهربى كذلك له بعد تشريحى وبعد حقيقى . أما البعد التشريحى فهو ذلك الحيز من الفراغ الذى يشغله ، وأما البعد الحقيقى فهو ذلك المدى المكانى الذى يصل إليه نوره . وعندئذ قد يلتقى مصباح بمصباح دون أن يتماسا ، وذلك من خلال نورهما الذى يشع منهما .ولا شك أن المصباح الأقوى يسيطر على المصباح الأضعف من خلال ضوئه الأقوى . وكلما كان الزجاج أكثر شفافية كلما كان المصباح أكثر إشراقاً ، وكذلك كلما زادت شدة التيار الكهربى مقاسة بالوات . كذلك الإنسان كلما زادت شفافيته ، أى قل تعلقه بالمحسوسات والأرضيات ، كلما زاد إشراقه الروحى . ومن ضيق

على نفسه في عالم الشهادة ، وسع الله عليه في عالم الغيب .
إن الاستقبال الإنساني له حيز محدود فإما ملأته بالاستقبال من عالم الشهادة أو بالاستقبال من عالم الغيب . وليس الكمال الإنساني أن تقتصر على الاستقبال من عالم واحد فقط حتى تستقبل منهما جميعاً . إنك تعيش على الأرض فيجب أن تستقبل من الأرض وكذلك فأنت نفخة من روح الله ، فيجب أن تسمح لروحك أن تشف حتى تستقبل من أصلها الإلهي.

عندما يموت الإنسان ، فإن الروح تتحرر تحرراً كلياً وعندئذ يدرك الإنسان مالم يكن يدركه ويظهر له ماكان غيباً خفياً . ولاشك أن لحظات خروج الروح تعد من أشد لحظات الألم الإنساني ، وقد قال رسول الله ﷺ « إن للموت لسكرات ». وكان ﷺ يتغشاه الكرب عند وفاته ، وكان العرق يتصبب من جبينه ، مما دفع ابنته الكريمة فاطمة أن تقول : واكرباه أبتاه . فأجابها قائلاً : لا كرب على أبيك بعد اليوم . فخروج الروح إذن مقرون

بالألم النفسى والبدنى . والعكس صحيح . ففى أوقات الألم والمعاناة النفسية والبدنية تتحرر الروح تحرراً جزئياً . ولذلك وصف الله تعالى حال المؤمنين فى غزوة الأحزاب عندما اشتد عليهم الكرب بعد أن بوغتوا بالمشركين من الخارج وبخيانة اليهود فى الداخل وصف القلوب بأنها قد بلغت الحناجر ، وهذا يعنى أن الروح تحررت تحرراً جزئياً . ولذلك فإن الله تعالى يبتلى أحباءه وأولياءه بالآلام النفسية والبدنية حتى تتحرر أرواحهم وتتصل بالملأ الأعلى لتستلهم الحكمة والهداية . إن التكاليف الإسلامية كالصلاة والجهاد ، والصيام والحج ، والزكاة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تقترن بالمشقة النفسية والجسدية ولذلك فهى تؤدى إلى إشراقات روحية وفيوضات إلهية لها أثرها البالغ فى حياة صاحبها وفى حياة الناس .

لا شك أن الآلام النفسية والبدنية التى تعرض لها الإخوان ، كان لها أبلغ الأثر في رقة أحاسيسهم وإشراق أرواحهم التى

اتصلت بالملأ الأعلى فاستمدت قوتها من قوة الله ، وعظمتها من عظمة الله ، وصبرها من صبر الله الصبور .

إن الروح إذا تحررت تحرراً جزئياً أو كلياً اخترقت حواجز الزمان والمكان فأصبحت تبصر عالم الغيب كما يبصر الماديون عالم الشهادة ، وصارت تتواصل مع الأجيال فى الماضى والمستقبل ، وغدت تسبح فى الحاضر بحيث تتواصل مع الأجيال فى كل مكان . لقد اخترقت حجب الزمان ، وتجاوزت حواجز المكان . ولذلك كان هذا الانتشار الزمانى والمكانى المذهل لجماعة الإخوان المسلمين . لقد اتصلت هذه الأجيال الطاهرة بأجيال الصحابة والتابعين السابقين ،كما اتصلت بأجيال الصحوة الإسلامية اللاحقين ، كذلك غدا اسم الإخوان المسلمين يتردد على ألسنة الناس فى كل مكان بما فى ذلك الأصدقاء والأعداء. لاشك أن ذلك هو نتاج الألم، وثمرة المعاناة . حقا إن المعانة ولادة . إن قطرات الدم الطاهر الذى أهريق ، وسنى السجن

الأليمة التى مرت ، كل ذلك لم يذهب سدى ، ولم يضيع مع الأيام . وكيف يضيع شئ كان لله ، وفى سبيل الله وعلى ملة رسول الله ؟ ، قبح الله الكذب ، وأخزى الله الكاذبين .

إن أشباه الرجال في أيامنا هذه يريدون أن يشككوا فى هذه الصفحات البيضاء ، وهذا التاريخ المشرق الوضاء. إنهم عندما يسطرون التاريخ ينسون العظماء من أمثال حسن البنا ، وحسن الهضيبى ، وعمر التلمسانى . أما عن جهاد الإخوان فى فلسطين وعلى ضفاف القناة فلا تعرف كتب التاريخ المدرسية عن ذلك ما يجعلها تتيه فخراً وإعجاباً . إنه الحقد الأسود ، والكيد الحقير . تزييف للحقائق ، وتشويه لوجه التاريخ .

إن الإخوان المسلمين غرة فى جبين الإمة الإسلامية . لقد أعادوا لها وجهها المشرق ، وحققوا بطولات رائعة تكتب بمداد من ذهب على صفحات من نور.

قـــوم إذا حـــاربـوا ضـروا عدوهـــم
وإن حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

سجيـــة تلك فيهـم غيــر محدثـــة
إن الخـلائق فاعلـم شـــرها البـدع

ما أعظم الإسلام ، وما أعظم تعليماته وأخلاقه . إن الدين الذى صنع هؤلاء الرجال لجدير بأن يتبع . وكيف لا وهو تنزيل رب العالمين ، الذى يعلم السر وأخفى ، والذى هو أمات وأحيى ، والذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى .

إن الإخوان علموا أن الله هو محرك التاريخ ، وأن القدس هى محور التاريخ . ولذلك فإنهم على يقين كامل ، وعلى ثقة مطلقة من استرداد القدس وإحياء سيرة عمر بن الخطاب وصلاح الدين . إن الله الذى صنع عمر بن الخطاب وصلاح الدين قادر على أن يصنع غيرهما . إن عطاءه لم ينفد ، وإن كيده ماله من زوال ، وما كيد الكافرين إلا فى ضلال . « ياغلام احفظ الله يحفظك،

احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » .

إن الإخوان يرون أن الحرب التى يخوضونها ضد الكفر والكافرين، إنما هى فى حقيقتها حرب بين الله وبين الكافرين، وما هم إلا جند الله القوى العزيز. إن الله إذا أراد أن ينتصر لن يعجزه شئ، ولن يمنعه مانع، ولن يقوى على حربه أى مستكبر جبار .

ماذا صنع بقوم لوط ؟ وماذا حل بثمود ؟ وماذا كان مصير فرعون وقارون ؟ ؟ ﴿ **فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم**

يظلمون ﴾ . إن الله أقوى من أمريكا ، وإنه قادر على زلزلتها كما زلزل روسيا من قبلها وما كان لها من الله من عاصم . إن أمريكا جسم بلا روح ، وجعجعة بلا طحن ، وسراب بلا ماء . والحقيقة التى يجهلها الكثيرون ، وعن رؤيتها يتعامون هى أن أمريكا ربيبة إسرائيل وليس العكس . إن إسرائيل تحكم العالم من خلال أمريكا وليس العكس . إن القرار يصنع فى إسرائيل ويصدر فى أمريكا .

يارب كن لنا عونا ونصيراً ، وكن لنا سنداً وظهيراً ، وكن لنا ولياً كبيراً . اللهم زلزل عروش الظالمين ، وخذ بنواصى المستكبرين واقهرهم واجعلهم مثلاً للآخرين . اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تبق منهم أحداً . اللهم فرق شملهم ، وشتت جمعهم واجعل بأسهم بينهم شديداً . اللهم عليك بأمريكا وإسرائيل ، وحلفائهم من شياطين الإنس والجن . اللهم ظهر الفساد ، وعلا المفسدون ، واستضعف المؤمنون . اللم أين نصرك الذى وعدتنا ؟ وأين كيدك الذى لا يخيب؟ . أين قهرك لفرعون ؟ وأين بطشك

بعاد وثمود ؟ . هل ذهبت قوتك ؟ أم هل هانت كلمتك ؟ أم هل حل غضبك على الناس أجمعين ؟ . أين برك بأوليائك ؟ وأين إذلالك لكل مستكبر جبار ؟ .إن الظالمين طغوا من طول إمهالك لهم ، وإن المؤمنين قد زلزلوا وكاد صبرهم أن ينفد من طول ما أصابهم من بأساء وضراء . اللهم كما ابتليتنا بالضراء فصبرنا ، ابتلينا بالنعماء وألهمنا شكرها . اللهم إنا نعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بنا سخطك أو يحل علينا غضبك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، لك العتبى حتى ترضى .

ليس كالمسلم فى الخلق أحد

ليس خلق اليوم بل خلق الأبد

إنما الإسلام فى الصحـــــرا

امتهـد ليجئ كل مسلم أسـد

* * *

التقوى

الإسلام . دين الفطرة . دين العقول السليمة والقلوب الطاهرة ، والأخلاق القويمة . من كان يبحث عن الأخلاق الفاضلة فالإسلام يكفيه ، ومن كان يبحث عن نصرة المستضعفين فالإسلام يكفيه ، ومن كان يبحث عن سعادة البشرية فالإسلام يكفيه . الإسلام هو الطريق الذى اختاره الخالق للمخلوق ، والرب للعبيد . **﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾**.إن الإسلام هو النموذج الحضارى الذى تفتقده البشرية . إنه نموذج مثالى واقعى . فهو ليس مثالية مفرطة لا تقيم وزنا للغرائز الإنسانية ، والنوازع البشرية . كما أنه ليس واقعية غالية تجرى خلف الشهوات ، وتسبح فى بحار الغرائز والأهواء . إنه نموذج معتدل لأنه صادر عن الله العدل ، ونموذج جميل لأنه صادر عن الله الجميل ، ونموذج حق لأنه صادر عن الله الحق .

ذهب الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ليفتح بيت المقدس ، وكان نموذجا للبساطة والتواضع . كان لا يتميز على خادمه ، يركب الراحلة بعض الوقت والغلام يسير إلى جواره ، ثم ينقلب الوضع ليركب الغلام ويسير الأمير . يالها من نفس عالية قلما تكتحل عين الدنيا بمثلها . وفي الطريق اعترضتهم مخاضة وكان على الأمير أن يسير بينما الغلام يركب . ولم تطب نفس الغلام أن يركب والأمير يخوض فى هذه المخاضة بقدميه فأراد أن ينزل ليركب الأمير ، ولكن الأمير العظيم رفض . وعندما وصل مشارف البلاد استقبله قائده أبو عبيدة ، وقد ذهل من المشهد الذى رآه . لقد كان ينتظر أن يأتى أمير المؤمنين فى موكب كبير ، محاط بمظاهر الملك ، ودلائل الأبهة التى تليق بهذا الفتح الكبير . لقد كان الأمير يلبس ثيابا مرقعة بها أربع عشرة رقعة . وكان طبيعيا أن يظهر أبو عبيدة استنكاره لموكب الأمير أما الأمير فقد كان رده مفحما ، ومنطقه قويا ، وحجته بالغة .

قال الأمير « لقد كنا أذلاء فأعزنا الله بالإسلام فإن ابتغينا العز في عيره أذلنا الله ». إن هذه المظاهر الجوفاء لا ترفع أصحاب النفوس الوضيعة ، والهمم الدنيئة .

إن الناس لا يتفاضلون فى الإسلام بملابسهم وألوانهم وأجسامهم وأنسابهم ، وإنما يتفاضلون بقلوبهم وأعمالهم **﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾** . وقد قال رسول ﷺ « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . إن سلمان ـ ذلك العبد الفارسى ـ عاد إلى المدائن ـ التى هرب منها باحثا عن الحقيقة ـ عاد إليها أميرا ، وما رفعه إلا إسلامه وتقواه وشهادة الرسول ﷺ له حيث قال « سلمان منا آل البيت» . إن الإسلام لا يعرف العنصرية ، بل يعدها ضربا من ضروب الجاهلية . لقد عير أبوزر بلالا بأمه فقال له يا ابن

السوداء فغضب النبى ﷺ لبلال وقال لأبى ذر « أعيرته بأمه ، إنك امرؤ فيك جاهلية ». فما كان من أبى ذر إلا أن وضع خده على الأرض وطلب من بلال الحبشى أن يطأه . بادرة خطأ ، وتوبة عاجلة ، ومعلم ملهم .

ألا ما أعظم هذا النبى . إن أصدق وصف يوصف به رجل كمحمد ﷺ هو أنه رسول الله ليس إلا . إن أعظم وسام ناله هو قول الله عزوجل ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ . وقد أدرك هو نفسه هذا المعنى فقال«أدبنى ربى فأحسن تأديبى». وليس بعد أدب الله من أدب ، وليس بعد تربية المولى من تربية .

كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وأشجع الناس، وأحلم الناس. فعن جابر رضى الله عنه قال ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال: لا. متفق عليه.

وعن أنس رضى الله عنه قال : ما سئل رسول الله ﷺ على

الإسلام شيئا إلا أعطاه ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بن جبلين فرجع إلى قومه فقال : ياقوم أسلموا ، فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفقر . رواه مسلم . وعن على رضى الله عنه قال : كنا إذا احمر البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . وعن على قال : لقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسا . ولما غشيه المشركون ﷺ نزل عن بغلته وجعل يقول :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وعن ابن مسعود قال : قسم رسول ﷺ قسمة فقال رجل من الأنصار هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فذكر ذلك للنبى ﷺ ، فاحمر وجهه وقال : « رحم الله أخى موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر » . الإسلام إذن هو دين الأخلاق السامية والذوق الرفيع ، ولا حظ فى الإسلام لمن أعوزته الأخلاق

الكريمة . قال رسول الله ﷺ : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . والأخلاق الإسلامية ليست رياء ولا تكلفا ، وإنما تصدر عن صفاء النفس ونقاء السريرة . إن المسلم مطالب بأن يتخلق بأخلاق الله. ولذلك فالأخلاق الطيبة بالنسبة له ذاتية وليست ردود أفعال. إنه يحسن إلى الناس ليس لأنهم يستحقون الإحسان ولكن لأن ذلك طبعه.﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ .

إنه يفعل محبوبات الله ، ومن محبوبات الله أن نتخلق بأخلاقه التى هى أخلاق ذاتية وليست ردود أفعال. قال رسول الله ﷺ « ما منكم من أحد يدخل الجنة بعمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله. قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » . هناك تعامل مصدره العدل ، وتعامل مصدره الفضل، وتعامل مصدره الحب . التعامل بالعدل هو أن تجازى السيئة بمثلها ، والتعامل بالفضل هو أن تقابل الإساءة بالإحسان ، أما المحب فيفعل ما يمليه عليه حبه دون التفات إلى أفعال

الناس . إن الحب هو القوة الدافعة للحياة والإبداع . والحب بالنسبة للمسلم لا يقتصر على حب الأحياء بل يتعدى ذلك إلى الجمادات . قال رسول الله ﷺ « هذا أُحُد جبل يحبنا ونحبه » . وكان يخاطبه قائلا « اثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان » . ومن أحب فى الله وأبغض فى الله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان. وأوثق عرى الدين الحب فى الله والبغض فى الله . لا جرم إذن أن من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله رجلان تحابا فى الله ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه . إن المسلم ليس إلا طاقة سيالة من الحب فى الله . إن المسلم ينظر إلى نفسه وإلى الدنيا والآخرة وكل ما سوى الله على أنه لا شئ متمثلا فى ذلك قول لبيد بن ربيعة : ألا كل شئ ماخلا الله باطل . إن شهادة أن لا إله إلا الله تعنى أن تكفر بكل ماسوى الله ثم لا تؤمن إلا بما أراد لك أن تؤمن به . أنت لا شئ إلا إذا انتسبت إلى الله فأنت

حينئذ عظيم . ﴿ **والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا** ﴾ . والدنيا لا شئ إلا ما كان لله منها ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** ﴾ . إن المسلم عندما يسأل الله الجنة لا يطلبها لذاتها ولكن لأن الله يحب أن تسأله الجنة ﴿ **واسألوا الله من فضله** ﴾ . وقديما طرح هذا السؤال : أيهما أفضل : أن نعبد الله خوفا من النار وطمعا فى الجنة ، أم نعبده حبا فيه لأنه جدير بالحب بقطع النظر عن الثواب والعقاب ؟ . إن الله تعالى حكى عن أنبيائه وصفوة خلقه أنهم. ﴿ **كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا** ﴾. وقال: ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا** ﴾. فهم إذن يسألون الله الجنة ويتعوذون به من النار وهم الصفوة والقدوة من البشر . ومع ذلك فإننا نسمع عن عابدة تناجى ربها فتقول : إن كنت أعبدك خوفا من نارك

فأدخلنى فيها ، وإن كنت أعبدك طمعا فى الجنة فاحرمنى منها، ولكنى أعبدك لذاتك العلية وصفاتك السنية . وروى عن البعض أن العبادة على الخوف هى عبادة العبيد ، وعبادة الرجاء هى عبادة التجار ، وعبادة المحبة فهى عبادة الأحرار، وقد قال الإمام الشاطبى : فالخوف سوط سائق ، والرجاء حاد قائد ، والمحبة تيار حامل . وإذا أردنا كشف النقاب عن ذلك فنقول: إن دوافع الإنسان للعمل تختلف من شخص إلى آخر ، وبالنسبة لنفس الشخص فإن دوافعه للعمل تختلف من مرحلة إلى أخرى أو من حالة نفسية ومزاج خاص إلى حالة نفسية أخرى .

هناك مثلا دافع الخوف وهو أقل الدوافع الإنسانية نضوجا، ودافع الرجاء وهو أعلى من الخوف، ثم دافع الحب وهو أعلى من كليهما.إن هذه الدوافع الثلاثة هى دوافع أنانية لأنك تعمل ولسان حالك يقول أنا أعمل لأننى خائف أو لأننى راج أو لأننى محب.فأنت فى هذه الأحوال الثلاثة تقول أنا. أما الدافع

الأسمى والمرتقى الأعلى فهو أن تعمل ليس لأنك خائف أو راج أو محب، ولكن أن تعمل لأن الله يحب منك أن تعمل.على الإنسان أن يتجرد عن ذاته وينكرها كأنها غير موجودة فلا يقول أنا بل يقول هو، لا يقول أنا أريد بل يقول هو يريد، لا يقول أنا أفعل ذلك لأننى أحبه، بل يقول لأنه يحب كذا فأنا أفعله، لأنه فى الحقيقة لا موجود بحق إلا الله ، وهذا أحد معاني قولك لا إله إلا الله .عليك أن تكفر بأى إله ثم لا تؤمن إلا بالله وحده . عليك أن تعلم أن كل ما سوى الله تعالى هو لا شئ من النفس والمال والأهل والبنين والوطن والدنيا والآخرة . كل هذه الأشياء لا قيمة لها فى ذاتها ، ولا تستحق أن تطلب أو تحب إلا لأن الله تعالى يحب ذلك . فأنت إذا أحببت نفسك وأحسنت إليها فليس لأنها تستحق الإحسان لذاتها ولكن لأن الله تعالى يحب منك ذلك ، حيث أن الله تعالى يأمر بالإحسان إلى كل شئ ونفسك أولى بالإحسان من

غيرها ﴿ **وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**﴾ . وأنت إذا أحسنت إلى زوجتك فليس لأنها تستحق الإحسان لذاتها ولكن لأن الله تعالى يحب ذلك . قال رسول الله ﷺ « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » . وأنت إذا أحببت قومك وعشيرتك ليس لأنهم يستحقون الحب لذاتهم ولكن لأن الله تعالى يحب ذلك فالأقربون أولى بالمعروف . وأنت إذا أحسنت إلى الناس بصفة عامة فليس لأنهم يستحقون ولكن لأن الله تعالى يحب منك ذلك قال تعالى: ﴿**وقولوا للناس حسنا**﴾ وقال تعالى: ﴿**وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن**﴾ إن الإنسان قد يفعل الخير وهو لا يرجو ثوابا، ولا يخاف عقابا وإنما لأن الخير طبع فيه،وخصيصة من خصائصه. وهذا جميل ولكن يجب أن يضيف ذلك إلى الله فيقول أنا أفعل الخير لأن الله يحب مني أن أتخلق بأخلاقه وهو سبحانه الخير كله بيديه. وأنت إذا سألت الله تعالى الجنة واستعذت به من النار ليس لأن

الجنة تستحق الطلب فى ذاتها ، ولا لأن النار تستحق الهرب فى ذاتهـا ، ولكن لأن الله تعـالى يحب منك أن تسـأله الجنة وأن تستعيذ به من النار . كل ما سوى الله لا شئ إلا إذا انتسب إلى الله فحينئذ يكون عظيـما . وكل عمـل باطل إلا إذا كان من محبوبات الله ومراداته .

الحب الحقـيقى هو أن تنسى أنك شئ وأن لك إرادة ، بل تستـمـد وجودك من وجود الله ، ولا تريد إلا ما أراد الله سواء وافق مرادك أم خالفه ، بل أكثر من ذلك أن تحب كل ما أحبه الله مهـما كان صعبا أو مرا . قال رسول الله ﷺ « لا يؤمن أحـدكم حـتى يكون هواه تبـعـا لما جئت به » الحب الحقيقى أن تستعذب العذاب فى سبيل المحبوب .

ليتك تحلو والحياة مـــريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خـــراب

إن صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

من أحب شيئا ضحى فى سبيله بكل ما يملك ﴿ **إن الله إشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوارة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ .

إن العبودية الحقة هى أن تغفل عن نفسك فكأن لا وجود لها ، وأن تصدر فى كل أفعالك وأقوالك ، وحركاتك وسكناتك ، وأعمال قلبك وأعمال جوارحك ، أن تصدر فى كل هذا عن مراد الله وليس عن مرادك وإن كان مراد الله موافقا مرادك . ولنضرب لذلك مثلا : لو طلب منك قائدك العسكرى أن تزوره فى مكتبه. وهناك قدم لك مشروبا فشربته ، فمع أن هذه هى صورة واحدة إلا أن دوافعك لزيارة القائد وشرب المشروب يمكن أن تختلف . يمكن أن تذهب لأنك تخاف على نفسك

العقوبة لو كسرت الأوامر . ويمكن أن تذهب لأنك تريد أن تمتع نفسك بشرب المشروب المقدم . ويمكن أن تذهب لأن نفسك تحب هذا القائد العسكرى وتأنس لرؤيته والحديث معه غير ملتفتة إلى عقوبته أو مشروبه الذى يقدمه . فى كل هذه الأحوال الثلاثة أنت ملتفت إلى نفسك وليس إلى قائدك ولسان حالك يقول نفسى تخاف ، أو نفسى تطلب العطاء والشراب ، أو نفسى تحب . أما العبودية الحقة ، والغيرية الخالصة فهى أن لا تنظر إلى نفسك ، ولا تلتفت إلى وجودها ، فهى لا شئ ، ومن ثم فإن مراداتها أيضاً لا شئ ، وكل ما يصدر عنها لا شئ. فلأن الله يحب أن تفعل كذا فأنت تفعله بقطع النظر عن دوافك ومشاعرك وأحاسيسك . وبالجملة فأنت لا ترى فى الوجود إلا الله تعالى .

أحبك حبين حب الهوى

وحبا لأنك أهل لذاك

فأما الـذى هـو حـب الـهوى

فشغلى بذكرك عـمـن سـواك

وأمـا الـذى أنـت أهـل لـه

فكشفك لى الحجب حتى أراك

فلا الحمد فى ذا ولاذاك لى

ولكن لك الحمد فى ذا وذاك

إن العبـد الذى يصل إلى هذه الدرجة ، ويشـعـر بهـذا الإحساس هو ذلك العبد الربانى الذى يقول عنه الله تعالى فى الحديث القدسى « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها ، ولئن سئلنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » . مثل هذا العبد تظهر له كرامات وخوارق للعادات أظهرها تغيير أفكار الناس وسلوكياتهم ومعاملاتهم

ولا جرم أن أعظم الكرامة لزوم الإستقامة كما قال الإمام ابن تيمية قدس الله روحه . إن تغيير وجه الأرض في حاجة إلى بشر من هذا الطراز النادر ، وذلك النوع الفريد . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ، إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾.

إن رجلا واحدا من هذا الصنف جدير أن ينفخ هذه الروح في شعبه وقومه فإذا بهم يستحيلون خلقا آخر . إن محمدا ﷺ أخرج من الخيام خيرة الأنام وصفوة الحكام ودعاة السلام وحماة الإسلام . لقد تحول العرب بفضل الله والرسول من رعاة

للإبل إلى رعـاة للأمم . لقـد انهـار باطل الروم والفـرس تحت سيوف حقهم ، ودالت دولة الكفر لتقوم دولة الحق والعدل ودخل الناس فى دين الله أفواجا . لقد دخلت البشرية فى عصر جديد يقوم على أسس غير تلك التى قام عليها العصر القديم . لقد أصبح الناس يتفاضلون بالتقوى بعد أن كانوا يتعاظمون بالآباء . وباتوا لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأعجمى على عربى إلا بالتقـوى . فالناس لآدم وآدم من تراب . لقد تصالح الذئب والغنم ، والقط والفأر ، وانمحت الضغائن والأحقاد . أى روح طيبة تلك التى سرت فى الناس وأحدثت فيهم هذا التغيير. إن الرجال العظماء لا يصدر عنهم إلا العظيم من الأعمال . وأى عظمة أبلغ من تلك التى كان يحويها محمد بين الحنايا والضلوع . إن سر عظمته ، ومصدر قوته هو ذلك الوحى الإلهى وذلك الإلهام الربانى . ولا شك أن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن

أخذ به أخذ بحظ وافر . طوبى لمن كان من أتباع هذا النبى الكريم وويل للمخالفين . قال رسول الله ﷺ « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى . قالوا ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى ».

أحزان قلبى لا تـزول حتى أبشر بالقبول

وأرى كتابى باليمين وتقر عينى بالرسول .

إن من أشرب حب النبى ﷺ فقد فاز فوزا كبيرا . إن سعادة الدنيا والنجاة في الأخرة لا يتحققان بغير متابعة النبى ﷺ ، قال تعالى ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ . قالوا العمل الصالح هو أصوبه وأخلصه ، والصواب هو أن يكون على طريقة النبى ﷺ والإخلاص هو أن لا تقصد بعملك غير وجه الله الكريم .

لا كان من لسواك فيه بقية

يجد السبيل بها إليه اللوم

إن محبة الله تعالى ليست شقشقة باللسان ، ولا تسبيحا بالبنان ، وإنما هى امتلاء القلب بمعرفة الملك الديان . إن أبابكر ما سبقكم بكثرة صلاة ولا كثرة صيام وإنما بشئ وقر في القلب وصدقه العمل . نحن لا نقلل من قيمة الذكر والتسبيح فهما السبيل إلى معرفة الله إلى جانب الفكر والتفكر، وإنما نعنى أن أعمال الجوارح القصد منها هو تحقيق تلك المعرفة القلبية «ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب» «التقوى ها هنا التقوى ها هنا التقوى ها هنا وأشار إلى صدره» .

إن القلب هو محل نظر الله ، قال رسول الله ﷺ « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم

وأعمالكم». وإن سلامة القلب من الآفات هى التى تنفع يوم القيامة ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾. والقلب ليس تلك القطعة مخروطية الشكل من اللحم والتى توجد فى تجويف الصدر ، وإنما هو تلك الروح التى أودعها الله تعالى فى الإنسان واستأمنه عليها ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا** ﴾.

إن العبد إذا أذنب ذنبا نكتت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب وندم واستعتب صقل قلبه وإن عاد عادت حتى تعلو قلبه حتى تصير إلى قلبين أحدهما أبيض لا تضره فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيا وذلك هو الران الذى يطبع القلوب ﴿ **كلاَّ بلْ ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ .

إن سلامة القلب من الآفات ، وتحليه بالفضائل يعبر عنه في الإسلام بالتقوى . سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبى بن كعب عن التقوى، فقال له : أما مررت بطريق ذى شوك؟، قال : بلى قال فما فعلت ؟ قال شمرت واجتهدت قال كذلك التقوى . قال الشاعر :

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى

واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

وينسبون إلى الإمام على رضى الله عنه قوله عن التقوى إنها هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل . إن كلمة التقوى ومشتقاتها الكثيرة تتخلل القرآن الكريم في مواضع كثيرة . إنها الغاية من عبادة الله تعالى ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾. وهى الطريق الموصلة

إلى الجنة ﴿ **تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا**﴾ وهى السبب فى نزول الملائكة بالتأييد ﴿ **بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين**﴾. وهى السبيل للفوز في الحياة الدنيا ، قال الله تعالى على لسان يوسف الصديق بعد أن أظهره الله تعالى على إخوته بعد أن كادوا له كيدا، قال تعالى ﴿ **إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ .

إن التقوى هى الثمرة التى تثمرها شجرة الصوم ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ . والتقوى هى زاد المسافر إلى الله تعالى ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب** ﴾ . وآخر وصايا القرآن الكريم هى الأمر بالتقوى قال تعالى ﴿**واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله**

ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾.

ومن طلب الزلفى إلى الله تعالى فليتق الله ، قال تعالى ﴿ **والله يحب المتقين﴾** .

إن شجرة التقوى متى نبتت فى القلب أثمرت الحكمة . قال الحسن البصرى رحمه الله : لا زال أهل العلم يعودون بالذكر على الفكر والفكر على الذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة . وكان سفيان الثورى كثيرا ما يتمثل بهذا البيت :

إذا المرء كانت له فكرة ففى كل شئ له عبرة

إن التفكر هو أعظم عبادة أقرها الإسلام ، وأرقى سلوك عرفه الإنسان . إن التفكر عمل القلب ، والفكر الإنسانى هو عملية دائبة أشبه بالرحى الدائرة ، إما أن تطحن الحبوب فتصير دقيقا يستفيد منه الناس ، وأما أن تطحن الرمل والحصى . فمن كان

فكره فى الله العظيم فقد أحسن حيث أن الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . إن الذكر والفكر هما الجناحان اللذان يطير بهما السالك إلى الله تعالى . فالذكر يورث الأنس بالله تعالى أما الفكر فيورث المعرفة والمعرفة تورث المحبة .

لقد أمر الله تعالى بالتفكير فى خلق السموات والأرض فى مواضع كثيرة من القرآن . قال تعالى ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار** ﴾ وقد قال رسول الله ﷺ : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » . وكان ﷺ إذا قام من الليل قرأ الآيات الأخيرة من سورة آل عمران التى تبدأ بهذه الآيات .

وكلما كانت روافد المعرفة بالنسبة للإنسان أكثر كان تفكيره أعظم نفعا وأجل فائدة . فمن كانت معارفه ومعلوماته أكثر كان عطاؤه الفكرى أنقى وأعظم . فالفكر لا بدله من معرفة والمعرفة حتى تؤتى أكلها لابد لها من فكر . والفكر هو الفقه الذى يقصده النبى ﷺ حين قال « نضر الله وجه امرئ سمع مقالتى فوعاها فبلغها كما سمعها فلرب مُبَلَّغ أوعى من سامع ولرب حامل فقه ليس بفقيه » . ولذلك قسم الناس علم الحديث إلى علم الحديث رواية وعلم الحديث دراية . إن المرء قد يكون فقط وعاء للمعلومات يحفظ ما يلقى إليه أشبه مايكون بالأرض الصلبة التى تحفظ الماء فينتفع به الناس ولكنها غير قادرة على الإنبات . وهناك إنسان آخر يقلب وجوه الفكر فيما يسمع ويقرأ ويرى فيخرج كنوزاً ودرراً أشبه ما يكون بالأرض الخصبة التى ينزل عليها الماء فتنبت الزرع والنخيل . إن الإنسان الذى يقرأ و يفكر ، ويسمع ويفكر ، ويرى ويفكر يشبه

النحلة التي تنتقل من زهرة إلى أخرى ومن بستان إلى بستان لتمتص الرحيق ثم تخرج بعد ذلك عسلا مصفى فيه شفاء للناس . إن الفكر بلا علم هو جعجعة بلا طحن وساقية بلا ماء ومحرك بلا بنزين . لا بد إذن من العلم فمجلس علم خير من عبادة ستين سنة . والعلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكن ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر . وخيركم من تعلم القرآن وعلمه. والعلم خير من المال ؛ العلم يحرسك وأنت تحرس المال والعلم يزكو بالإنفاق والمال تنقصه النفقة ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه . وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب . ومداد العلماء مقدم على دماء الشهداء لأن العلماء هم الذين دلوا الناس على الجهاد فى سبيل الله وطلب الشهاده . ولولا العلم لصار الناس فوضى أو لصاروا حيوانات عجماء . وهو الذى مدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن يجهله

صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الخلوة، والصاحب فى الوحدة . وكانوا يقولون لابن المبارك ألا تجلس معنا فكان يقول أنا أذهب لمجالسة الصحابة والتابعين ، يعنى من خلال الكتب .

وفى تعبيرات وإشارات أهل الطريق إلى الله «العلم» خير من «الحال» فنفع الحال لا يتعدى صاحبه ، ونفع العلم كالغيث يقع على الظراب والآكام وبطون الأودية ، ومنابت الشجر. دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة ، ودائرة الحال تضيق عن غير صاحبه وربما ضاقت عنه . العلم هاد والحال الصحيح مهتدٍ به .

* * *

الشهيد

ولد «الخـمـينى»(روح الله الموسـوى) فى ٢٠ جـمـادى (عام١٩٠٢م) . وماتت أم الفتى موسوى عام ١٩١٨ ، لذا فقد ذهب ليعيش عند أخيه الأكبر «باسنديداه موسوى» . وكان «لروح الله موسوى»صديق فى حوزة «الحائرى» يدعى «محمد الثقيفى». وكان رجلاً عجوزاً متزوجاً له ابنة تسمى «خديجة» تزوجها الخمينى عندما بلغ الخامسة والعشرين . والسيدة خديجة هذه ذات شخصية قوية ، وحينما تم ترحيله من مدينة قم عام ١٩٦٣ وألقى به على الحدود التركية ، أخبرها الخمينى ألا تحاول اللحاق به ، لكنها تجاهلت تعليماته وشقت طريقها إلى النجف ثم صحبته من النجف إلى فرنسا ، ورغم أنه توجه مباشره إلى منزله فى ضاحية نوفل لو شاتو ولم تطأ قدماه باريس ، فإنها قامت بعدة زيارات للعاصمه ورأت كل معالمها وأظهر ت اهتماما بكل مارأت .

وباعتبار الخمينى فقيها فقد كانت له إسهاماته فى علم الفقه.

فقد قام بتأليف عدة كتب من أهمها «تحرير الوسيلة» و«الحكومة الاسلامية». و الخمينى صاحب عقلية جيدة كما أن أفكاره تتسم بالبساطة .فهو يرى الإسلام ككل وكوحدة ، ويهاجم أى حكومة فى العالم الإسلامى تحيد عن تعاليم القرآن ويعتبر حاكمها « طاغوتا ».

وتعد أفكار الخمينى تقدمية للغاية من جوانب عدة ، ففى كتابه « الحكومة الإسلامية » يناقش موضوعات مثل الإمبريالية والاستغلال ونفوذ أمريكا بالطرق المعاصرة . وهو يؤكد فى كتابه هذا، كما يفعل فى سائر كتبه الأخرى موضوعين أساسيين - العداء الولايات المتحدة ، وكراهية الصهيونية وإسرائيل .

كان الخمينى يدرك جيداً أثر «الإعلاميات» التى يصدرها ويتداولها الإيرانيون ، ولم تكن المشكلة هى كيفية تغيير الرأى العام ، وإنما كيفية التغلب على قوة القمع التى يتحكم فيها الشاه والتى تتمثل فى الجيش .

كان الإمام الخمينى يرى أن الطريقة الوحيدة لمواجهة الجيش ليست المقاومة المسلحة كما كان يراها الحواريون والأتباع ، وإنما الطريقة الوحيدة لمواجهة الجيش هى نزع سلاحه أى تحييده. إن السلاسل التى تربط أعضاء القوات المسلحة بالشاه وهى يمين الولاء والطاعة يجب أن تتحطم . وفى البداية بدت استراتيجية «نزع سلاح الجيش» غير مفهومة وأحياناً غير معقولة بالنسبة للمحيطين بالإمام.

إن التحدث عن مثل هذه الأمور أيسر من ممارستها ، فقد كون الشاه صفوة كبيرة من بين الضباط تتقاضى مرتبات مرتفعة للغاية ، ويتمتعون بمميزات عديدة ويدينون له بكل شئ . أما أفراد القوات المسلحة من الرتب الأخرى ، فكانوا يخدمون فى وحدات بعيدة عن أقاليمهم ، فالأذربيجانيون يخدمون فى طهران ، والطهرانيون يخدمون فى أذربيجان وهكذا. وهذا يعنى أنه إذا تصدى الجيش للشعب فلن يكون هناك مانع من إطلاق النار على الشعب حيث لا توجد صلة قرابة بين أفراد الجيش وأفراد الشعب . والأقسام

الحساسة فى الجيش كانوا من الأقليات ، ولم يكن من المحتمل فى منطق النـاس أن يستجيبـوا لنداء الإمام . (شبكة الاتصالات ، مثلا ، كان يديرها البهائيون).

كانت رسالة الإمام الخمينى إلى الجنود هى يجب عليهم ألا يخدموا الشـاه ، وألا يطلقـوا النار على إخـوانهم المتظاهرين ، ويأمرهم بالتهرب من الخدمة العسكرية حاملين معهم أسلحتهم إن أمكن.

وكانت أوامر الإمام الخمينى إلى أتباعه ألا يصطدموا بالجيش تحت أى ظرف من الظروف وأن لا يتـعـرض أحـد للجـيش ولو بحصاة ، إنهم إخواننا وهم مغلوبون على أمرهم ، والمطلوب فقط هو الإطاحة بالحلقة التى تربطهم بالشاه .

«لاتهاجموا الجيش فى صدره وإنما هاجموا قلبه . يجب أن تناشدوا قلوب الجنود حتى وهم يطلقون النار عليكم ويقتلونكم .

فلندعهم يقتلون خمسة آلاف ، عشرة آلاف ، عشرين ألفاً ، إنهم إخوتنا وسنقابلهم بالترحاب . وسنبرهن على أن الدم أكثر قوة من السيف »[1]

لا شك أن الإمام الخمينى قد أدرك حقيقة إنسانية لايعلمها كثير من الناس . « إن الدم أكثر قوة من السيف » هكذا قال الإمام الخمينى . إن التسلح بماظاهره الضعف المطلق له من التأثير فى إحراز النصر ، وتحقيق المراد مالأشد الأسلحة قوة وبطشاً. ألا ترى أنك تستسلم أمام دموع الطفل ، وبكاء المرأة . بالطبع ليست هذه دعوة إلى الضعف ، وثناء عليه ، ولكن المراد هو بيان أن السبيل لتحقيق المراد، وإحراز النصر ليست سبيلاً واحدة ، وإنما هناك أكثر من سبيل ، فإذا افتقدت القوة المادية فلا جرم أن تتسلح بالقوة الروحية . بالطبع ليس الحديث عن القوة الروحية هو

---

(١) محمد حسنين هيكل ـ مدافع آية الله ـ قصة إيران والثورة ـ دار الشروق ـ الطبعة الرابعة ١٩٨٨ ص ١٩٣ .

حديث عن الوهم أو إغراقاً فى الخيال . إنها حقيقة يشهد لها الواقع ويؤكدها التاريخ .

قال الإمام الخمينى « يقال أحياناً إن البطل هو جوهر التاريخ ، لكن من قال ذلك فهو مخطئ . إن الشهيد هو جوهر التاريخ ، الروح الدافعة وراءه . فلتعروا صدوركم للجيش ، لأن الشاه سوف يستخدم الجيش والجيش سينفذ أوامره . نحن نعرف أن الأمور مختلطة على الجنود لا يعرفون كيف يتصرفون لكنهم سيجدون أنفسهم مضطرين لإطاعة الأوامر ، كيف يتسنى لهم عصيان الأوامر وهم ملزمون بنظام الجيش ، لكنهم سيحررن أنفسهم يوماً ، من نظام الشيطان ويرجعون إلى الله . إذا صدرت إليهم الأوامر بإطلاق النار عليكم فلتعروا صدوركم ، فدماؤكم والحب الذى ستظهرونه لهم وأنتم تسلمون الروح لبارئها ، سوف يقنعهم ، فدماء كل شهيد هى ناقوس يوقظ ألفاً من الأحياء »[1].

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن

---

(١) السابق ص ١٩٣

الله ذو فضل على العالمين ﴾ .

إن قوة الإنسان ليست مطلقة ، وإن قدرته على إراقة الدماء ليست لا نهائية . مهما كان الإنسان طاغياً وباغياً ، ومهما أعوزته الدوافع الأخلاقية والعقيدة الدينية ، فإنه فى النهاية إنسان من لحم ودم تحكمه الأخلاق الطبيعية . ولذلك فإن تقسيم الناس إلى أخلاقى ولا أخلاقى هى تسمية على سبيل التغليب وليست على سبيل الإطلاق . مهما كان الإنسان لا أخلاقياً بمعنى أنه لا تزجره تقاليد المجتمع ، ولا يقيم وزناً لحرمات الدين ، فإنه فى النهاية لن يفلت من سيطرة الأخلاق الطبيعية . ولولا ذلك لصارت الحياة فوضى ، وآذنت بالفناء . إن العقائد لا تنهار بسبب من طلقات المدافع ، ولا أزيز الطيران . إن الحجة لاتقارعها إلا الحجة ، وإن البيان لا يدفعه إلا البيان . إن الاضطهاد لا يزيد العقيدة إلا قوة وظهوراً . إن شجرة التحرر من سلطان المتألهين لايرويها إلا دم يهراق ، ولا يغذوها إلا هشيم من عظام الشهداء

الأبرار . إن موت الغلام كان سبباً فى إيمان شعب كان بالأمس كافراً ، فعن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك: إنى قد كبرت فابعث إلى غلاماً أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاماً يعلمه ، وكان فى طريقه إذا سلك راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، وكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسنى أهلى ، وإذا خشيت أهلك فقل حبسنى الساحر . فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس ، فرماها فقتلها ومضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره . فقال له الراهب : أى بنى أنت اليوم أفضل منى ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلى ، فإن

ابتليت فلا تدل على ، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ، ويداوى الناس من سائر الأدواء ، فسمع جليس للملك كان قد عمى ، فأتاه بهدايا كثيرة فقال ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتنى ، فقال : إنى لا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله تعالى ، فإن آمنت بالله تعالى دعوت الله فشفاك ، فآمن بالله تعالى فشفاه الله تعالى ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك : من رد عليك بصرك ؟ قال ربى . قال : ولك رب غيرى ؟ قال : ربى وربك الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فجيئ بالغلام فقال له الملك : أى بنى قد بلغك من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل وتفعل فقال : إنى لا أشفى أحداً ، وإنما يشفى الله تعالى ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ، فجيئ بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار فوضع المنشار فى مفرق رأسه ، فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيئ بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى

، فوضع المنشار فى مفرق رأسه ، فشقه به حتى وقع شقاه ، ثم جيئ بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبو به إلي جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه . فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا ، وجاء يمشى إلى الملك ، فقال : له الملك : ما فعل بأصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله تعالى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : إذهبوا به فاحملوه فى قرقور وتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه ، فذهبوا به فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل بأصحابك ؟ فقال كفانيهم الله تعالى . فقال للملك إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به . فقال: ما هو؟ قال: تجمع الناس فى صعيد واحد ، وتصلبنى على جذع ، ثم خذ سهماً من كنانتى ، ثم ضع السهم فى كبد

القـوس ، ثم قل : باسم الله رب العـلام ، ثم ارمنى ، فـإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى . فجمع الناس فى صعيد واحد ، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهـماً من كنانته ، ثم وضع السهم فى كبد القوس ، ثم قال : باسم الله رب الغلام ، ثم رماه فوقع السهم فى صدغه ، فوضع يده فى صدغه فمات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام ، فأتى الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك . قد آمن الناس . فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخدت وأضرم فيها النيران وقال : من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها أو قيل له : اقتحم ، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أماه اصبرى فإنك على الحق » رواه مسلم .

إن الشهيد حى رغم قتله ، موجود بيننا رغم غيابه عنا ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم**

من خلفهم ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾.

إن تأثير الشهيد على الأجيال التى تليه ليس أقل من تأثيره على الأجيال المعاصرة له ، بل ربما فاق تأثيره على الأجيال التالية تأثيره على الأجيال المعاصرة . إن الشهداء يمثلون سلسلة مترابطة الحلقات من لدن آدم وحتى قيام الساعة . وهذا هو الشهيد العظيم كارم الأناضولى الذى استشهد بعد أن صدر ضده حكم بالإعدام فى عام ١٩٧٦م بعد أن واجه قضاته بكلمات تعبر عن حقيقة الصراع بين الخير والشر فى هذا الكون ، ذاكراً أن القضية التى يحاكم فيها ليست قضية «الفنية العسكرية» كما يزعمون ، وإنما هى قضية الصراع بين الحق والباطل . إنها نفس قضية حسن البنا وسيد قطب وعبد القادر عودة وعبد الفتاح عبده اسماعيل .

لقد اتصل الأناضولى بالشهداء الذين سبقوه والذين لحقوه

ليكون حلقة فى سلسلة الشهداء ، وهذا هو دفاعه وإن شئت فقل هجومه أمام هيئة المحكمة . إنه يتحدث عن طبيعة القضية فيقول :«إن القضية التى أنا متهم فيها الآن ـ ليست هى قضية الفنية العسكرية ولا قضية (صالح سرية) ولكنها فى حقيقة الأمر : هى نفس قضية حسن البنا ، هى بعينها نفس قضية يوسف طلعت ، وإبراهيم الطيب ، ومحمد فرغلى ، وعبد القادر عودة ، ومحمد هواش ، وعبد ستاح إسماعيل ! .

هى نفسها قضية سيد قطب وغيرهم من شهداء المسلمين»[1]

ثم يتحدث عن بداية التحاقه بموكب الشهداء الأبرار فيقول « لم تبدأ هذه القضية كما زعموا فى ليلة ١٨ / ٤/ ١٩٧٤ . ولكن من قبل ذلك بكثير، فقد كان شعورى بالاحتياج إلى الله تعالى ، والافتقار إليه سبحانه وتعالى قد بدأ فى كيانى منذ سنوات

---

(١)دعاة لابغاة ـ دكتور على جريشة ـ دار البحوث العلمية ـ الكويت ـ الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ ـ صـ٧٥ .

عـديدة ، حـقـاً إنه لـم يظهـر فى صـورة علنيـة ظاهرة لمن حـولى بوضوح إلا بعد أن التحقت بالكلية الفنية العسكرية ، حيث أننى تلقيت صدمة كبرى كانت كفيلة بأحد أمرين : إما أن تقذفنى فى هوة الهـلاك ، أو تأخـذنى بقـوة وتلصـقنى بشـدة بصـراط ربى الرحيم الودود . وقد اختار لى سبحانه وتعالى الأمر الثانى فضلاً منه ونعمة ».[1]

وكـان من الطبيعى بالنسبة لهـذا الشاب الطاهر أن يبحث له عن صحبة تعينه على طاعة الله ، تكون إلى جواره فى مواجهة التيار الشيوعى الذى يسيطر على أفراد الكلية أساتذة وطلاباً . اتجه الأناضـولى إلى مسـجد الكليـة لكى يحتمى بجناب الله العظيم . غير أن ذلك لـم يرض زعماء الشيوعية من الأساتذة والطلاب فلما شعروا بمن يقف ضدهم ولو حتى بمجرد اعتزالهم وتسفيههم نقلوا عداءهم فـوراً من عـداء سافـر وقح موجه لله فى السموات

---

(١) السابق صـ ٧٧ ـ ٧٨ .

العلا ، إلى عداء قذر رخيص ضد أولياء الله فى الأرض . وصار الأناضولى متهماً فى الكلية هو وإخوانه بأنهم من المتزمتين أو من الإخوان المسلمين ، وهى التهمة التى تلصق بكل من أراد أن يضبط أقواله وأفعاله بضابط الإسلام الحنيف ، وبالأخص إذا كان من المنادين بأن الحكم والسياسة والاقتصاد لابد أن يضبطوا بشريعة الله الغراء . بدأ الأناضولى يتعرض للاضطهاد شأنه شأن السابقين من الدعاة إلى الله بإحسان ، فبدأ يتعرض للمحاكمة العسكرية بتهمة تشكيل جماعة من الإخوان المسلمين داخل الكلية ، كما أجبر على أن يكون مشروعه للتخرج من الكلية برفقة اثنين من زملائه من كبار زعماء الماركسية ، وتحت إشراف معيد من النصارى ، وصارت العيون عليه وعلى زملائه فى كل مكان .

ثم يحكى الأناضولى لهيئة المحكمة ما تعرض له هو وزملاؤه من تعذيب نفسى ومادى «كنت فى المخابرات الحربية مقيد اليدين بطريقة ممتازة ، يضيق بها القيد حيث شاءوا ، حتى يعصروا

الساعدين ، ومعصوب العينين ، وملقى فى زنزانة . حاولت جاهداً أن أبصر ما حولى ، ونجحت المحاولة وندمت على نجاحها . فلم أر سوى دماء تلطخ الجدران من أمامى . ثم صمت أذناى بصراخ التعذيب ينبعث فجأة من كل مكان حولى ، وأبواب زنازين تفتح وتغلق . فمكثت أنتظر دورى ، وجاء الدور سريعاً جداً ، فساقنى شئ ما ، حتى أوقفنى فى مكان ما، وسمعت ضحكات الشياطين وهى فى غاية السعادة والغبطة بالفريسة المقيدة أمامهم ، وبدأ اليوم الرهيب . ولقد كانت جميع وسائلهم للتعذيب محلاة ببعض الألفاظ التى أربأ بلسانى أن ينطقها ، وبإخوانى أن يسمعوها ـ حيث كان إخوانه موجودين فى قفص الاتهام الحديدى . وعند منتصف النهار أوقفوا التعذيب ، ثم رفعوا العصابة عن عينى بعد أن قيدونى بأحد المقاعد الموجودة لأجد أمامى نموذجاً من ضحاياهم . وجدت أخى «حسن الطحينى» ولم أكن أعرفه يومها رأيته أمامى كتلة من الدماء ، لا أستطيع تمييز جوارحه فضلاً عن

تمييز ملامحه ، وهددت أننى سوف أصبح مثله فى دقائق ، فوضعت العصابة مرة أخرى وأعيد الحال كما كان ».[1]

مالذى يصبر شاباً كهذا على مثل هذا اللون من العذاب؟ وما الذى يدفعه لأن يضحى بحياته فى سبيل الله ؟ . إن الله هو محرك التاريخ ، وهو الذى يتخذ له أولياء يشملهم بعنايته ، ويكلؤهم برعايته ، ويصنعهم على عينه ، يزهدون فيما يتكاثر عليه الناس ، ولا يفزعون إذا فزع الناس ، ولا يجبنون إذا جبن الناس . إنهم لا نصيب لهم فى أنفسهم ، لقد باعوا أنفسهم لله . إن أعينهم قد عميت فلا ترى إلا وجه الله ، وآذانهم قد صمت فلا تسمع إلا كلام الله ، وأيديهم قد شلت فلا تتحرك إلا فى مراد الله **﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع**

---

(١) السابق ص ٨٠ ـ ٨١ .

عليم ﴾ . إن المحب الحقيقى يرى الله فى كل شئ . إنه ينظر إلى كل ما يقع فى هذا الكون على أنه صادر عن الله العظيم ﴿ **الله خالق كل شئ** ﴾ . إن الله هو الذى يحرك الناس ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله قوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهو عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ . إن الله تعالى يبتلى الأمم بالتمكين والاستضعاف كما يبتلى الأفراد بالسراء والضراء . مطلوب فى حالة التمكين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله . أما الاستضعاف فالمطلوب فيه السعى للخروج منه ﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ، إلا المستضعفين من الرجال**

والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان عفواً غفوراً﴾ ﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ، ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ، الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ . إن الرضا بالظلم ، والصبر على الذل من الأمور التى يبغضها الله . لابد إذن من العمل الجاد ، والتخطيط المحكم ، والجهاد المتواصل . لابد من اليقين الجازم ، والإيمان القاطع ، أن الله يريد أن يمن على المستضعفين ، وأن يخذل المستكبرين **﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض**

ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ . إن الله هو الذى يحرك الناس لما يريد، وهو الذى يدفعهم إلى تحقيق مشيئته ﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاءً حسنا إن الله سميع عليم ، ذلك وأن الله موهن كيد الكافرين ، إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغنى عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين ﴾** . لا ترهبن قوة الظالم ، فإن الله أقوى، ولا تخافن مكر الطغاة ، فلا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ، ولا تخالفن أمر الله فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

إن الله غالب على أمره ، مظهر لدينه ولو كره الكافرون . فعن أبى عبد الله خباب بن الأرت رضى الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا . فقال رسول الله ﷺ : « قد كان من

قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيوضع فيها ، ويؤتى بالمنشار ويوضع على رأسه فيشق إلى نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه . والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون » .

إن الصبر شرط ضرورى لبلوغ الغاية ، ونيل المأرب ، وتحقيق النصر . والإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر .

والصبر فى اللغة هو حبس النفس على ما تكره ، وهو من أصعب المنازل على العامة وأوحشها فى طريق المحبة . وإنما كان صعب على العامة لأن العامى مبتدئ فى الطريق وليس له دربة فى السلوك ، ولا تهذيب المرتاض بقطع المنازل . فإذا أصابته المحن أدركه الجزع ، وصعب عليه احتمال البلاء ، وعز عليه وجدان الصبر . وذلك لأنه ليس من أهل الرياضة ، فيكون مستوطناً للصبر، ولا من أهل المحبة ، فيلتذ بالبلاء فى رضا محبوبه . وأما

كونه وحشة فى طريق المحبة ، فلأنها تقتضى التذاذ المحب بامتحان محبوبه له ، والصبر يقتضى كراهيته لذلك ، وحبس نفسه عليه كرهاً ، فهو وحشة فى طريق المحبة .

وفى الوحشة نكتة لطيفة ، لأن الالتذاذ بالمحنة فى المحبة هو من موجبات أنس القلب بالمحبوب ، فإذا أحس بالألم بحيث يحتاج إلى الصبر انتقل من الأنس إلى الوحشة . ولولا الوحشة لما أحس بالألم المستدعى للصبر . والصبر من آكد المنازل فى طريق المحبة ، وألزمها للمحبين . وهم أحوج إلى منزلته من كل منزلة ، وهو من أعرف المنازل فى طريق التوحيد وأبينها ، وحاجة المحب إليه ضرورة .

فإن قيل : كيف تكون حاجة المحب إليه ضرورة مع منافاته لكمال المحبة فإنه لا يكون إلا مع منازعات النفس لمراد المحبوب؟. قيل : هذه هى النكتة التى لأجلها كان من آكد المنازل فى طريق

المحبة وأعلقها بها . وبه يعلم صحيح المحبة من معلولها ، وصادقها من كاذبها . فإنه بقوة الصبر على المكاره فى مراد المحبوب يعلم صحة محبته . ومن ها هنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة . لأنهم كلهم ادعوا محبة الله تعالى ، فحين امتحنوا بالمكاره انخلعوا عن حقيقة الحب ، ولم يثبت معه إلا الصابرون . فلو لا تحمل المشاق ، وتجشم المكاره بالصبر لما ثبتت صحة محبتهم . وقد تبين بذلك أن أعظمهم محبة ، أعظمهم صبراً . ولهذا وصف الله تعالى بالصبر خاصة أوليائه وأحبائه ، فقال عن حبيبه أيوب ﴿ **إنا وجدناه صابراً** ﴾ ثم أثنى عليه فقال ﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾. وأمر أحب الخلق إليه بالصبر بحكمه ، وأخبر أن صبره به . وأثنى على الصابرين أحسن الثناء . وضمن لهم أعظم الجزاء . وجعل أجر غيرهم محسوبا، وأجرهم بغير حساب. وقرن الصبر بمقامات الإيمان والإسلام والإحسان، فجعله قرين اليقين،والتوكل، والإيمان، والتقوى. وأخبر أن آياته إنما ينتفع بها أولوا الصبر وأخبر أن الصبر خير لأهله . وأن

الملائكة تسلم عليهم فى الجنة بصبرهم . وليس فى كره النفوس لألم ماتصبر عليه ، وإحساسها به ، ما يقدح فى محبتها ولا توحيدها . فإن إحساسها بالألم ، ونفرتها منه ، أمر طبيعى لها ، كاقتضائها للغذاء من الطعام والشراب، وتألمها بفقده . فلوازم النفس لاسبيل إلى إعدامها أو تعطيلها بالكلية ، وإلا لم تكن نفساً إنسانية ولا ارتفعت المحنة ، وكانت عالماً آخر .

والصبر والمحبة لا يتناقضان ، بل يتواخيان ويتصاحبان. بلى علة الصبر فى الحقيقة المناقضة للمحبة ، المزاحمة للتوحيد ، أن يكون الباعث عليه غير إرادة رضا الله ، بل إرادة غيره ، أو مزاحمته بإرادة غيره . هذه هى وحشة الصبر ونكارته .

وأما من رأى صبره بالله ، وصبره لله ، وصبره مع الله ، مشاهداً أن صبره به تعالى لا بنفسه ، فهذا لا تلحق محبته شائبة ، ولا توحيده نكارة .

والنصف الثانى من الإيمان هو الشكر . والشكر فى اللغة هو

ظهور أثر الغذاء فى أبدان الحيوان ظهوراً بيناً . وكذلك حقيقته فى العبودية . وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافاً وعلى قلبه شهوداً ومحبة ، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة . والشكر مبنى على خمس قواعد . خضوع الشاكر للمشكور ، وحبه له ، واعترافه بنعمته ، وثناؤه عليه بها ، وأن لايستعملها فيما يكره . وشكر العامة على المطعم والمشرب والملبس وقوت الأبدان . وشكر الخاصة على التوحيد والإيمان وقوت القلوب . وقيل من كتم النعمة فقد كفرها ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها . وهذا مأخوذ من قوله ﷺ « إن الله إذا أنعم على عبد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمته على عبده » وفى هذا قيل:

ومن الرزية أن شكرى صامت … عما فعلت وأن بـرك ناطق

وأرى الصنيعة منك ثم أسرها … إنى إذاً لندى الكريم لسارق

والشكر على المكاره أشد وأصعب من الشكر على المحاب ، ولهذا فهو فوقه فى الدرجة .

* * *

الجهاد في سبيل الله

أشهر مافى الكونغرس الأمريكى اللجنة الأمريكية اليهودية للشئون العامة (التى تعرف اختصاراً «ايباك » بالانجليزية) . فما أن يذكر هذا الاسم أمام أى شخص فى الكابتول هيل (أى مبنى الكونغرس فى واشنطن) ممن يتعاطون بسياسات الشرق الأوسط ، حتى يتجهم وجهه ، إن لم نقل يمتقع ، فايباك هى صاحبة السلطة الغالبة بين المجموعات الضاغطة (اللوبيات) فى واشنطن .

وليست ايباك سوى جزء من اللوبى الإسرائلى ، بيد أنها من ناحية التأثير المباشر على السياسة العامة هى الأهم بكل وضوح . ولا نبالغ إذا قلنا إن ايباك تتحكم فعلاً بكل تصرفات الكابتول ديا . بشأن السياسة الشرق أوسطية ، ويكاد جميع أعضاء مجلس الشيوخ والنواب يهابونها ويطيعون بلا استثناء أوامرها لأن معظمهم يعتبر ايباك الممثلة المباشرة للكابتول هيل ، وذات القدرة السياسية التى تتيح أمامهم فرص النجاح فى الانتخابات أو تقضى عليها .

ويرى بول فندلى صاحب كتاب «من يجرؤ على الكلام» أن

مليونى يهودى على الأكثر يهتمون باللوبى إما سياسياً أو من ناحية فعل الخير . أما الملايين الأربعة الآخرون فلا يبدون أى اهتمام ، ومعظم المليونين المذكورين لا تتجاوز مشاركتهم التبرع ببعض المال.

وأشهر نشرة يصدرها اللوبى هى نشرة ايباك واسمها (أخبار الشرق الأوسط) ، وهى توزع على معظم المواطنين الأمريكيين المسئولين عن التصرفات السياسية الموالية لإسرائيل سواء أكان اهتمامهم الأول بإيباك ، أو بئناى بثرت ، أو اللجنة الأمريكية اليهودية، أو رابطة مكافحة الافتراء ، أو الصندوق الوطنى اليهودى ، أو النداء اليهودى الموحد ، أو أى تجمع وطنى رئيسى آخر . وتوزع النشرة أيضاً مجاناً على الصحف وأعضاء الكونغرس وكبار الموظفين الحكوميين وغيرهم من الشخصيات البارزة فى حقل السياسة الخارجية ، أما أعضاء ايباك فيحصلون على النشرة كجزء من الاشتراك السنوى .

ومن الناحية الفعلية فإن تجمعات اللوبى هى امتداد للحكومة الإسرائيلية . وقد اتضح ذلك عام ١٩٨١ ، عندما وزعت ايباك على أعضاء الكونغرس بياناً رسمياً تدافع فيه عن قيام إسرائيل بقصف

المفاعل الذرى العراقى قبل ساعة من إصدار رئيس وزراء إسرائيل البيان نفسه .

إن هذا التنسيق الوثيق بين اللوبى الصهيونى فى الولايات المتحدة والحكومة الإسرائيلية ، يدعو أحياناً للتندر فى الأوساط الحكومية الأميركية . فهذا دون بيرغوس السفير الأميركى الأسبق فى السودان، يذكر «أننا كنا فى وزارة الخارجية نتندر بأنه إذا أعلن يوماً رئيس وزراء إسرائيل أن الأرض مسطحة ، أصدر الكونغرس خلال ٢٤ ساعة قراراً يهنئه فيه على هذا الإكتشاف » .(١)

إن النظرة السطحيــة إلى النظام العالمى توحى بأن هذا النظام يتألف من مجموعة من الدول ينظم العلاقات فيما بينها ميثاق الأمم المتحدة . فلكل دولة مطلق السيادة على أرضها ، ولا يجوز لأى دولة التدخل فى الشئون الداخلية لدولة أخرى . ولكل شعب الحق فى تقرير مصيره ، واختيار نظام الحكم الذى يريده . أما النظرة المتعمقة نوعاً ما فتبين أن العالم مقسم إلى دول عظمى ودول تابعة.

---

(١) بولى فندلى « من يجرؤ على الكلام » شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الرابعة ١٩٨٧م ــ ١٤٠٧هـ ــ صـ ٤٨ .

وأن دولة عظمى مثل الولايات المتحدة تتحكم فى العالم من خلال آليات مختلفة مثل نظام المعونة ، والقروض ، والشركات متعددة الجنسية . وحتى يمكن لهذه الآليات أن تعمل لا بد من التهديد باستخدام القوة العسكرية إذا لزم الأمر . ولكن الولايات المتحدة لا تفضل الدخول فى مواجهة عسكرية مع الدول الصغيرة . فهى إما أن تشترك مع مجموعة من الحلفاء بعد أن تستصدر قراراً من الأمم المتحدة ومجلس الأمن التابعين لها ، وإما أن تستخدم عصا غليظة مثل إسرائيل لكى تكون وسيلة تأديب وقهر لكل من تسول له نفسه الخروج على الهيمنة الأميركية ، وفى هذه الحالة تبدو إسرائيل هى ربيبة الولايات المتحدة الأميريكية . ولكن النظرة الأكثر عمقاً تكشف المستور ، وتظهر المكنون . إن الولايات المتحدة هى ربيبة إسرائيل وليس العكس . إن إسرائيل تحكم العالم من خلال الولايات المتحدة وليس العكس هو الصحيح . إن الحكومة الخفية فى الولايات المتحدة تتمثل فى اللوبى الصهيونى الذى يسيطر على المنابر الفاعلة، والمؤسسات الحيوية فى الولايات المتحدة . إن القرارات تصنع فى إسرائيل وتصدر فى أمريكا . إن اللوبى الصهيونى يتحكم فى المؤسسة

السياسية ، والمؤسسة الإعلامية ، والمؤسسة التعليمية ، والمؤسسة الدينية فى الولايات المتحدة .

جاء فى خطاب لأحد زعماء الولايات المتحدة «بنجامين فرانكلين» عند وضع دستور الولايات المتحدة سنة ١٧٨٩م.

« هناك خطرعظيم يهدد الولايات المتحدة الأمريكية ، وذلك الخطر العظيم هو خطر اليهود » .

« أيها السادة : فى كل أرض حل بها اليهود أطاحوا بالمستوى الخلقى وأفسدوا الذمة التجارية فيها ، ولم يزالوا منعزلين لا يندمجون بغيرهم ، وقد أدى بهم الاضطهاد إلى العمل على خنق الشعوب مالياً ».

لا يجرؤ أحد على انتقاد اسرائيل فى الولايات المتحدة ، وإذا تجرأ نائب أو سناتور على انتقاد اسرائيل جر المتاعب على نفسه . برقيات احتجاج ، ومكالمات هاتفية مزعجة ، وتهديد ووعيد ، وتلطيخ سمعته ، وتوبيخ عنيف ، وإدراج فى« لوائح الأعداء المطبوعة » ورسائل حقد ، واعتداءات على الأشخاص فى بعض الحالات .

« إن المرء ليجرؤ على انتقاد اسرائيل فى الكنيست الإسرائيلى ، أكثر من جرأته على انتقادها فى الكونغرس الأميركى » هكذا قال أحد أعضاء الكونغرس .

وقال آخر : «هنالك أقلية فعالة إرهابية من اليهود الأميركيين الذين يؤيدون مقررات الحكومة الإسرائيلية ، خطأً كانت أم صواباً ، وهم إنما يفعلون ذلك بصوت عال وبشكل اندفاعي يخيف الآخرين فلا يسمع إلا صوتهم فى السياسات الأميركية مع أنه صوت أقلية ، ويسمع فى الولايات المتحدة أكثر مما يسمع فى إسرائيل .. ولرئيس وزراء إسرائيل تأثير على السياسة الأميركية الخارجية فى الشرق الأوسط أكثر منه على سياسات حكومته بوجه عام ».[1]

بينما كان جون ف . كندى المرشح الديمقراطى للرئاسة الأميركية يتناول العشاء مع مجموعة من اليهود الأثرياء البارزين فى نيويورك ، تقدم منه أحد الحاضرين وقال له : إنه يعرف أن حملته الانتخابية تواجه صعوبة مالية وعرض باسم المجموعة المساعدة ، والمساعدة بمقدار كبير ، إذا تعهد كندى بأن يسمح لهم عندما

---

(١) بولى فندلى « من يجرؤ على الكلام » صـ ١٥٧ .

يصبح رئيساً «أن يرسموا خط السياسة الشرق أوسطية للسنوات الأربع المقبلة» . لقد كان عرضاً مثيراً للدهشة [1] .

إن اللوبى الصهيونى له تأثيره الضاغط على أعضاء الكونغرس والبيت الأبيض . إن الحكومة الظاهرة فى الولايات المتحدة تتمثل فى السياسيين ، أما الحكومة الخفية فتمثلها المنظمات اليهودية مثل ايباك وبئناى بئرن . على أى مرشح للكونغرس أو للبيت الأبيض أن يقطع على نفسه العهود ، ويأخذ المواثيق ليكونن دائماً إلى جانب إسرائيل حتى يضمن لنفسه النجاح . إن اليهود يملكون المال لدعم الحملات الانتخابية ، وهم منظمون بالشكل الذى يساعدهم على إنجاح مرشحيهم ، كما أنهم يستطيعون أن يغرقوا البلاد بالمطبوعات والنشرات والصحف التى تؤيد وجهة نظرهم والتى تشكل الرأى العام. وهم يستطيعون ذلك ليس لأن لديهم قدرة خارقة ، ولكن لأنهم يعملون وغيرهم لا يعملون ، ويسهرون فى الوقت الذى ينام فيه الآخرون . إنهم يمثلون العصابة المنظمة التى تسيطر على الناس لأنهم يواجهونها فرادى ووحداناً . إن السياسيين يواجهون الاحتجاج من الأقلية اليهودية ولا يتلقون الدعم والتأييد من

(١) السابق صـ ١٩٣ ـ ١٩٤ .

الأغلبية البروتستنتية .

بعد غزو اسرائل لدولة عربية ، أرسل بيجن إلى سفير الولايات المتحدة مذكرة ، رداً على التحذيرات الشفوية المحضة، التى وجهتها إليه إدارة ريجان ، وقال فيها:

«مرة أخرى تعلنون عن نيتكم فى معاقبة اسرائيل .. ماذا تعنى صيغة كهذه ؟ هل نحن من رعايا الولايات المتحدة ؟. هل نحن جمهورية من جمهوريات الموز؟ . إنكم لن تصلوا إلى إرهابنا ، وسنبقى صماً لانسمع إنذارات كائن ، مهما كان .. لقد عاش شعب إسرائيل خلال ثلاثة آلاف وسبعمائة سنة ، دون اتفاق من هذا النوع مع أمريكا، ولسوف يستمر فى الاستغناء عنها ثلاثة آلاف وسبعمائة سنة أخرى »[١].

يعيش المواطن فى اسرائل داخل شبكة كثيفة من الرموز والأساطير التى نسجها الصهاينة من التراث الدينى اليهودى وأعطوها مضموناً قومياً . فعلم بلاده أبيض وأزرق ، لون «الطالبيت»(شال

---

(١) رجاء جارودى «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» دار التراث ـ القاهرة ـ ١٩٨٦م صـ ٤٨٤

الصلاة اليهودى) ، تتوسطه نجمة داود ، وهى رمز قبّالى ، ويتحدث نشيده القومى عن «عودة »إلى وطنه تذكر المرء بالعودة فى العصر الماشيحا نى ، وحتى اسم الدولة (إسرائل) واسم الأرض (أرتس اسرائيل) ، هى كلها تسميات دينية وقومية فى الوقت ذاته . والبرلمان الذى يجتمع فيه ممثلو «الشعب اليهودى» فى إسرائيل يسمى «الكنيست» أو مكان الاجتماع ، وهو اسم يذكر المرء بالمعبد اليهودى الذى يطلق عليه «بيت ها كنيست» . وقد غيرت أسماء المدن والموانئ والقرى ، وسميت بأسمائها العبرية القديمة، ذات الرنين الدينى والبريق الصوفى ، لتصبح إسرائيل شيئاً أشبه بالمتحف[1] .

والمواطن الإسرائيلى ، فى نظرته للعالم ، وإدراكه للواقع ، ليس لديه صورة واضحة عن فلسطين أو الفلسطينين أو الشرق الأوسط . وهو يستخدم ألفاظاً لاصلة لها بالواقع ، مثل السامرة ويهودا ، وينظر إلى الشرق الأوسط من منظور «الحقوق المطلقة»و«المقدسة» الواردة

(١) الدكتور عبد الوهاب المسيرى « الأيديولوجية الصهيونية » القسم الثانى ـ سلسلة عالم المعرفة ٦١ ـ الكويت ـ يناير ١٩٨٣م صـ ١٥٠«

فى التوراة والتلمود ، التى لايمكن مخالفتها أو التشكيك فيها ، والتى تستبعد تماماً أى أساس للحوار . وقد لاحظ الكاتب الإسرائيلى بن عيزر أن الاتجاه السائد فى إسرائيل (فى الدوائر الدينية وغيرها) يرى العرب على أنهم العماليق الذين ورد ذكرهم فى التوراة . وقد شبه الصهاينة الاستطيان فى فلسطين ، بغزو يشوع بن نون لأرض كنعان ، كما شبهوا السكان العرب فى الأراضى المحتلة، فى بعض الأحيان «بالأمم السبعة المذكورة فى التوراة التى صدر أمر بإبادتها »[1] .

إن هناك تواطؤ بين بنى إسرائيل على الكيد للإسلام . إنهم على الرغم مما بينهم من خلافات عقائدية ، وعلى الرغم مما يشتعل فى صدورهم من أحقاد قومية ، اجتمعوا على العداء للإسلام . إن الصهيونية الباغية ، والصليبية الحاقدة ، والوثنية الجاهلة ، كل هؤلاء يكرهون الإسلام . إن أحقاد الماضى تشتعل فى الصدور لكى تبدل النور ظلمة ، والعدل جوراً ، والسعة ضيقاً وحرجاً . عندما ذهب ربعى بن عامر إلى رستم قائد الفرس ، بعد

---

(١) السابق صـ ١٥٠ ـ ١٥١ .

أن طلب مقابلة أحد المسلمين ، سأل رستم : ما الذى جاء بكم إلى هنا ؟ فأجاب ربعى : إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . إن الإسلام حركة تحرير لكل الناس إذا أرادوا . إنه يريد لشريعة الله أن تسود ، ولنور الحق أن يفيض، ولظلمة الكفر أن تغيض .

ليس كالمسلم فى الخلق أحـد
ليس خلق اليوم بل خلق الأبد
إنما الإسلام فى الصحـــــرا امتهد
ليجيئ كل مسلـم أســـــد

ولا شك أن وظيفة المسلم صعبة ، وأن تبعته مضنية ، وأن مسئوليته خطيرة . ولكن :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم   وتأتى على قدر الكرام المكـارم
وتعظم فى عين الصغير صغارها   وتصغر فى عين العظيم العظائم

ثم إن سلعة الله غالية ، وليس لها ثمن إلا بذل المهج والأرواح

فى سبيل الله ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ . وقد قال رسول الله ﷺ «ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ، ولا رأيت مثل النار نام هاربها » . « وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلاباً » . لابد من تجييش الجيوش ، وحشد الحشود، وإعداد العدة للقتال فى سبيل الله ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ . ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ .

ما قيمة الحياة بعد هتك الأعراض ، وانتهاك الحرمات ، وسلب الأموال ، واغتصاب الأراضى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة**

الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ، إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شئ قدير ، إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم ﴾ .

تباً لقوم لا يقاتلون ، ولا يتألمون لما يصيب المسلمين وعلى دين الله لا يغارون ، نهارهم وليلهم ينامون ، طعامهم ولباسهم لا يصنعون ، قمحهم وسيفهم يستجدون ، تهان مقدساتهم وهم لا يعلمون ، وإذا علموا لا يبالون ، وإذا جاءهم من يرشدهم إلى الحق يستكبرون ، ويقولون أننا لتاركو نهج آبائنا الأولين ، قد ألفوا الذل فلا ينتصرون ، وأحبوا العيش فلا يقاتلون ، وأخلدوا إلى الأرض وطعنوا فى الدين ، فويل لهم يوم الدين .

أيها المسلمون ، التائهون الشاردون ، أفيقوا من غفلتكم ، وانهضوا من رقدتكم ، فليس فى الدنيا مكان للنائمين ، وليس فى الآخرة مكان للغافلين ، وليس إلا الذل عاقبة للكسلانين . لابد

للحق من قوة تحميه ، ولا بد دون الورد من الشوك ، ولا بد دون الشهد من إبر النحل ، كما قال المتنبى :

ذرينى أنل ما لا ينال من العـــــلا

فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل

تريدين إدراك المعالى رخيصـــــــة

ولابـــــد دون الشهد من إبـــر النحـــل

وقال أيضاً :

لكل جسم فى النحول بليـــــــة

ونحول جسمى من تفاوت همتى

وقال أيضاً :

وإذا كانت النفوس كبـــــــاراً

تعبت فى مرادها الأجســــــام

إن الحقيقة هى كما قال الشاعر :

ومكلف الأيام غير طباعهـــــا

متطلب فى المـــــاء جذوة نار .

إن الدنيا دار بلاء واختبار ، دار كدح وتعب ، دار معاناة

وكبد. إن البحث عن السعادة فى هذه الحياة هو بحث عن السراب أى بحث . إن السعادة ليست الغرض وإنما الغرض هو عبادة الله . وعبادة الله لا تنحصر فى ركعات تؤدى ، وأيام تصام ، ورحلة سياحية إلى الحرم الشريف . إن أعظم فرائض الإسلام هى الجهاد فى سبيل الله ، قال رسول الله ﷺ « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله » . والجهاد الإسلامى ليس عدواناً على الناس ، ولا استرقاقاً للشعوب ، ولا جرياً وراء المغانم والأطماع . وليس الغرض من الجهاد هو إراقة الدماء ، وإزهاق النفوس عبثاً وبغير حق . وليس الغرض منه أيضاً تكوين إمبراطورية واسعة مترامية الأطراف يحكمها جنس أو شعب . ليس الغرض منه تكوين مستعمرات لاستنزاف ما بها من مواد خام وجعلها سوقاً لتصريف المنتجات . ليس الغرض منه إخضاع الشعوب لنظام اقتصادى ظالم وغير متكافئ . ليس الغرض منه الحصول على الأيدى العاملة الرخيصة التى ترضى بالفتات الذى لايقيم أوداً ولا يستر عورة . ليس الغرض منه تقسيم الناس إلى سادة وعبيد انطلاقاً من قاعدة الجنس أو اللون . ليس الغرض منه إرغام الناس على

اعتناق فكرة معينة دون حجة أو برهان سديد . وليس الغرض منه إقامة نظام عالمى متخلف يخاصم المدنية ويدير ظهره للحياة . وليس الغرض منه تكوين حكومة دينية بالمعنى المفهوم لدى الغرب فى العصور الوسطى ، عصور الظلام والانحطاط عندهم . ليس الغرض منه تحقيق سلطة رجال الدين وإبعاد ونفى أصحاب الثقافات المدنية ، والعلوم العصرية . ليس الغرض منه العودة إلى عصر الحريم حيث يفرض على المرأة التقييد والتجهيل . إن الجهاد الإسلامى هو ثورة على كل الأوضاع الفاسدة ، والمعايير الخاطئة ، والموازين الجائرة . ثورة على التفرقة العنصرية « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ . وحكاية ابن عمرو بن العاص فى ذلك مشهورة . فقد تسابق ابن عمرو بن العاص مع ابن رجل نصرانى . فسبق ابن النصرانى ابن عمرو بن العاص، فضربه ابن عمرو وقال له أتسبقنى وأنا ابن الأكرمين ، حيث كان عمرو والياً على مصر من قبل الخليفة عمر بن الخطاب. فما كان من أبى الغلام النصرانى إلا أن ذهب إلى عمر بن الخطاب

فى المدينة ، شاكياً له مافعله ابن عمرو . فأرسل عمر إلى عمرو أن يوافيه هو وابنه فى الموسم القادم . فلما حضر عمرو هو وابنه ، وتثبت عمر من صحة الواقعة ، طلب من ابن النصرانى أن يضرب ابن عمرو كما ضربه ، وأجاز له أن يضرب عمرو إن أراد حيث أن ابنه لم يستطل على الناس إلا بسلطان أبيه ، ولكن النصرانى رفض ذلك متعللاً بأنه قد تشفى ممن ضربه . ثم عقب عمر على الواقعة بقوله الذى لا يزال يدوى فى سمع الزمان « يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

إن الإسلام قد شدد النكير على ظلم أهل الذمة فقال رسول الله ﷺ : « من ظلم معاهداً أو انتقصه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة » وقد رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شيخاً يهودياً يسأل الناس ، فقال له : ما ألجأك إلى ما أرى فقال : الحاجة والجزية والسن . فأخذ بيده وذهب إلى عامله على بيت المال فقال له : أنظر هذا وضرباءه فو الله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم . ليس فى الدنيا كلها نظام يتعامل مع الأقليات والشعوب المغلوبة بنفس البر الذى

يتعامل به الإسلام ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون** ﴾ وقال ﷺ : « وإن الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذى عليهم »

[رواه أبو داوود] .

ويقول رسول الله ﷺ « من قتل معاهداً متعهداً فى غير كنهه حرم الله تعالى عليه الجنة » رواه أبو داوود والنسائى .

ومما ذكره فقهاء المسلمين « لو قتل مسلم لذمى خنزيراً أو أراق له خمراً فإنه يغرم ، أما لو قتل ذلك لمسلم أو أراق له خمراً فهدر » (١) .

وقد روى أبو داوود والترمذى (كان بين معاوية وبين الروم

---

(١) سعيد حوى ـ الإسلام الجزء الثانى ص ١٣ ـ مكتبة وهبة ـ ذى الحجة ١٣٩٧هـ أكتوبر ١٩٧٧م.

عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى إذا انقضى العهد غزاهم، فجاءه رجل على دابة أو فرس وهو يقول : الله أكبر وفاء لا غدر ، فإذا هو عمرو بن عبسة ، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال : سمعت النبي ﷺ يقول : « من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى يقضى أمدها أو ينبذ إليهم على سواء »فرجع معاوية)[1]

روى أبو داوود والنسائى ومسلم بلفظه (قال بريدة : كان النبى ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أو صى فى خاصة نفسه بتقوى الله ، ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : اغزوا باسم الله ، فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن أجابوك فاقبل وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، فإذا أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا أن

---

(١) السابق صـ ١٤ .

يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفيء شئ إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله عليهم وقاتلهم ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله . وإذا حاصرت أهل حصن وأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لاتدرى أتصيب فيهم حكم الله أم لا).[1] .

وقد روى يحيى بن سعيد أن أبا بكر بعث جيوشاً إلى الشام فخرج يشيعهم فمشى مع يزيد بن أبى سفيان وكان أمير ربع من تلك الأرباع ، فقال يزيد لأبى بكر : إما أن تركب وإما أن أنزل . فقال له : ما أنت بنازل ولا أنا براكب ، إنى أحتسب خطاى فى

---

(١) السابق صـ ٣١ .

سبيل الله ، ثم قال : إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فدعهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له ، وستجد قوماً فحصوا عن أوساط رؤوسهم الشعر ، فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف فإني موصيك بعشر : لا تقتلن امرأة ، ولا صبياً ، ولا كبيراً هرماً ، ولاتقطع شجراً مثمراً ، ولا تخربن عامراً ، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، ولا تغرقن نخلاً ، ولا تحرقنه ، ولا تغلوا ، ولا تجبنوا . رواه مالك [1] .

إن الجهاد الإسلامي هو حركة تحرير للإنسان من كل سلطان غير سلطان الله ، ومن كل عبودية غير العبودية لله الواحد القهار . إن الإسلام لا يقبل من الناس أن يذلوا إلا الله ، ولا يحتكموا إلا لله، ولا يعبدوا إلا لله ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .

إن الإسلام لا يعتسف الأمور ، ولا يكلف المسلمين إكراه غيرهم على اعتناق عقيدتهم ، رغم أن الإسلام هو الصورة الكاملة الشاملة الصادقة لدين الله الواحد في الأرض ، وإنما شرع الجهاد

---

(١) السابق صـ ٣١ .

فى سبيل الله لحماية المؤمنين حتى لا يفتنوا فى دينهم ، قال الله تعالى : **﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾** .

ولا يقف الغرض من الجهاد على مجرد رد العدوان ، وترك الناس فى همجيتهم يعمهون ، وإنما شرع الجهاد أيضاً لكفالة حرية الدعوة ، وإزالة كل قوة طاغية فى الأرض تمنع أن تصل دعوة الإسلام إلى الناس كافة ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . ولا بد للجماعة المسلمة أيضاً أن تسعى لإقرار سلطان الله فى الأرض ، ودفع المعتدين على هذا السلطان . أولئك الذين يدعون أن لهم حق التشريع للناس من دون الله . إن المسلمين مأمورون أن يقيموا العدالة الكبرى فى الأرض حتى يستمتع بها كل الناس ، مسلمهم وكافرهم ، أبيضهم وأسودهم ، حيث لا تمنع فروق اللون ، والجنس ، والملة من إقامة العدل **﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقو الله إن الله خبير بما تعملون ﴾** . ويروى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رأى

قـاتل أخـيـه فـقـال له : والله لا أحـبك حـتى تحب الأرض الدم المسفوح، فقال له الرجل : وهل ذلك يمنعني حقى عندك ؟ فقال : لا. فقال الرجل حب أو لاتحب، فإنما يأسى على الحب النساء .

الإسلام إذن فى جهاد دائم لا ينقطع أبداً لتحقيق كلمة الله فى الأرض ، أى لتحقيق النظام الصالح الذى يقوم على مبادئه العليا فى عالم الفرد ، وعالم الجماعة ، وعالم البشرية ، وهو مكلف ألا يهادن قوة من قوى الطاغوت على وجه هذه الأرض ، سواء تمثلت هذه القوة فى صورة فرد يتأله على الأفراد والجماعات أو فى صورة طبقة تستغل الطبقات ،أو فى صورة دولة تستغل الدول والشعوب . إنهـا كلها صورة واحدة فى عرف الإسلام . صورة منافية لمبادئه الأساسية ؛ وعليه أن يجاهدها ما استطاع ؛ وعليه ألا يهادنها إلا ريثما يتجمع لكفاحها ، وعليه بطبيعة الحال ألا يعاونها ولا يقف فى صـفـهـا بحال من الأحـوال ﴿ **وتعـاونـوا على البـر والتـقـوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ .

إن قوة الإسلام قوة محررة تنطلق فى الأرض لتدك قواعد الظلم والاسترقاق والإستغلال . وهى لا تنظر فى هذا المجال لجنس ولا لون

ولا لغة ولا أرض ، الناس سواء ، كلهم ناس . أما فكرة القومية الضيقة التى اعتنقتها أوربا ، والتي انتقلت إلينا عدواها فى حدودها الضيقة الهزلية السخيفة ، فلا يعترف بها الإسلام لأنها تخالف نظريته الكلية عن وحدة البشرية .

حيثما كان ظلم فالإسلام منتدب لرفعه ودفعه . وقع هذا الظلم على المسلمين أو على الذميين ـ أى الذين أعطاهم الإسلام ذمته ليحميهم ـ أو على سواهم ممن لا يربطهم بالمسلمين عهد ولا اتفاق . وأظلم الظلم تعبيد العباد لغير الله ، وإقامة أرباب يشرعون لهم مالم يأذن به الله . وحيثما واجه الإسلام الفرد الظالم أو الطبقة الظالمة أو الدولة الظالمة ، واجههم على أنهم جماعة من البشر تظلم جماعة من البشر ، لا على أنهم سود أو حمر أو صفر أو بيض . ولا على أنهم مسيحيون أو يهود أو مشركون . واجههم بقدر ما يعطلون من تحقيق كلمة الله فى الأرض ، ومن تحقيق السلام الحقيقى لبنى الإنسان . وكان عنيفاً على كل بحسب نصيبه من هذا التعطيل ، وبحسب عتوه وضلاله وفساده .. فإذا استسلمت هذه القوة الطاغية أو اهتدت،

فالأفراد بعد ذلك أحرار فيما يتخذون لأنفسهم من عقيدة فى ظل النظام الذى يفرد الله بالألوهية والربوبية فيفرده بالسلطان والطاعة .

والإسلام يواجه القوى الواقفة فى وجهه بواحدة من ثلاث : الإسلام ، أو الجزية ، أو القتال .

أما الإسلام فلأنه الصورة الأخيرة لدين الله الخالد ، ولأنه الهدى للبشرية جميعاً ، ولأنه الناموس الذى يحقق العدالة الإنسانية الشاملة للجميع .

وأما الجزية فلأنها دليل الكف عن المقاومة ، وتحقيق حرية الدعوة ، وإزالة القوة المادية التى تصد الناس عنها .

وأما القتال فلأنه فى هذه الحالة هو الرد الباقى على مقاومة كلمة الله عن إصرار وعناد ، وحرمان البشرية من الاستمتاع بما تحمله لها هذه الكلمة من نور ومن عدل ومن سلام شامل كامل لبنى الإنسان .

فإذا استسلم من يطلب السلام فهؤلاء هم الذميون ـ أى الذين أعطاهم الإسلام ذمته وعهده لحمايتهم ورعايتهم ـ هؤلاء لهم ما

للمسلمين وعليهم ما على المسلمين بنص الإسلام الصريح . فأما ما يؤخذ منهم من الجزية ، فهو مقابل ما يؤدى المسلمون من زكاة ، مساهمة فى نفقات الدولة التى تحميهم كما تحمى رعاياها المسلمين سواء ، والتى توفر لهم العدل المطلق بلا تفرقة ولا تمييز ، وتحقق لهم ضماناتهم وتأميناتهم ، فى حالة المرض والعجز والشيخوخة ، ولم يشأ الإسلام أن يجبرهم على أداء الزكاة لأن الزكاة عبادة إسلامية خاصة ، وحرية الاعتقاد التى يكفلها الإسلام للأفراد تمنعه أن يكره الذميين على أداء عبادة إسلامية ، ولم يشأ كذلك أن يجبرهم على الجندية فى الصف المسلم . لأن المسلم إنما يجاهد فى سبيل الله عبادة لله . لهذا يأخذ منهم الضريبة تحت عنوان «الجزية» لا تحت عنوان «الزكاة» مراعاة لهذا المبدأ الإسلامى العام ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ . فإذا شاؤوا هم برضاهم واختيارهم أن يؤدوا الزكاة كالمسلمين بدل الجزية ، كان لهم ذلك عن رضا واختيار ، وقد اختارت قبيلة بنى تغلب على عهد عمر أن تؤدى الزكاة لا الجزية ، فأدتها على هذا الأساس كما ذكر ذلك سير ت . و . أرنولد فى كتابه «الدعوة إلى

الإسلام» .

لذلك لا يكون هناك أعجب ولا أخبث من إثارة الشكوك والمخاوف حول الأقليات المسيحية وغير المسيحية فى الأمة الإسلامية إذا حكم الإسلام . إنها دعاية خبيثة مغرضة آثمة يتولاها أحياناً جماعة من حمقى هذه الأقليات وخبثائها الذين تنغل نفوسهم حقداً وغلاً للإسلام ، لا لشئ إلا لأنه الإسلام . ويتولاها أحياناً أفراد يحملون أسماء إسلامية ، وهم فتات آدمى مهلهل يحاول أن يستند إلى أوكار الدعاية الخبيثة ؛ لأنها تملك لهم أغراضاً صغيرة من النفع المادى أو من الشهرة والدعاية لأشخاصهم الهزيلة المدخولة، ولأنهم يجدون بذلك عند الصليبين من المبشرين وبعض المستشرقين صدراً رحباً ، بما يؤدون للصليبية الخارجية من خدمات لا يؤديها الرجل المسلم ولا الرجل الشريف على أية حال !

* * *

استعلاء الإيمان

لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك . لبيك وسعديك ، والخير كله بيديك ، والشر ليس إليك ، وأنا منك وإليك . لبيك في السراء بله في الضراء ، لبيك في الدنيا ، ولبيك في الآخرة ، لبيك ، لبيك ، لبيك . لبيك إن الملك لك ، والحمد لاشريك لك ، لبيك ، لبيك، لبيك .

يامن أشكو إليه ما يعلمه　　والدمع يذيع كلما أكتمه

هذا المسكين من ترى يرحمه　　قد هان عليه كلما يؤلمه

* * *

بالجسم من السقام ما يحرضه　　والقلب يذوب من جوى يمرضه

ما قد حكم الإله من ينقضه　　قد أعوزني الصبر فمن يقرضه

يا أرباب الدنس ، يا أوساخ الذنوب﴿ **هذا مغتسل بارد وشراب**﴾، لا تقنعوا بصب ماء التوبة على الظاهر ، بلوا الشعر وانقوا البشرة . ما لم تسبح بدمع عينيك لم تأت بسنة الغسل :

فلو داواك كل طبيب داء بغير كلام ليلى ما شفاكا .

أبلغ المراهم لجراح الذنوب الندم ، وأوطأ فراش المعتذر القلق ، وأسرع الأوقات إجابة السحر ، فاطرد عن عينيك لذة النوم ، وناد فى نادى الأسى مع القوم :

يا من بسهامه لقلبى جرحا صل مشتاقاً بغيركم ما فرحـــا

ما ناح له مطوق أوصدحـا إلا شرب الدمع وعاف القدحـا

العزلة حمية البدن ، والمناجاة قوت القلب ، ومن أنس بمولاه استوحش من سواه :

يا منتهى وحشتى وأنسى كن لى إن لم أكن لنفسى

أوهمنى فى غد نجاتى حلمك عن سيئات أمسى

قال بعض السلف : رأيت شاباً فى سفح جبل عليه آثار القلق ودموعه تتحادر ، فقلت : من أين ؟ . فقال : آبق من مولاه ، قلت: فتعود فتعتذر ؟ ، فقال : العذر يحتاج إلى حجة ولا حجة للمفرط قلت : فتتعلق بشفيع ؟ ، قال : كل الشفعاء يخافون منه ، قلت : من هو ؟ ، قال : مولى ربانى صغيراً فعصيته كبيراً ، فوا حيائى من

حسن صنعه وقبح فعلى ، ثم صاح فمات ، فخرجت عجوز فقالت: من أعان على قتل البائس الحيران ؟ فقلت : أقيم عندك أعينك عليه ، فقالت : خله ذليلاً بين يدى قاتله عساه يراه بغير معين فيرحمه .

بالله عليك يافتى الأعـــــراب إن جزت على مواطن الأحباب

فاشرح سقمى وقل لهم عما بى ذاك المضنى يموت بالأوصاب

قال بعض السلف : لقيت غلاماً فى طريق مكة فقلت له : أما تستوحش ؟ فقال : إن الأنس بالله قطع عنى كل وحشة . قلت : فأين ألقاك ؟ قال : أما فى الدنيا فلا تحدث نفسك بلقائى وأما فى الآخرة فإنها مجمع المتقين . قلت : فأين أطلبك فى الآخرة ؟ قال: اطلبنى فى جملة الناظرين إلى الله تعالى . قلت : وكيف علمت ؟ قال : بغض طرفى عن كل محرم ، واجتنابى فيه كل منكر ومأثم ، وقد سألته أن يجعل جنتى النظر إليه ثم صاح وأقبل يسعى حتى غاب عن بصرى . وعن أسير بن عمرو رضى الله عنه قال :

كان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إذا أتى عليه أمداد أهل

اليمن سألهم : أبكم أويس بن عامر ؟حتى أتى على أويس رضى الله عنه ، فقال له : أنت أويس بن عامر ؟ قال : نعم ، قال : من مراد ثم من قرن ؟ قال : نعم ، قال : فكان بك برص ، فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال : نعم ، قال : لك والدة ؟ قال : نعم ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «يأتى عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ، ثم من قرن كان به برص ، فبرأ منه إلا موضع درهم ، له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل » فاستغفر لى ، فاستغفر له ، فقال له عمر : أين تريد ؟ قال : الكوفة، قال : ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال : أكون فى غبراء الناس أحب إلى ، فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشرفهم ، فوافى عمر ، فسأله عن أويس ، فقال : تركته رث البيت قليل المتاع ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يأتى عليكم أويس بن عامر مع أمداد من أهل اليمن من مراد ، ثم من قرن ، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم ، له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل » فأتى أويساً ، فقال ، استغفر لى ، قال : أنت أحدث

عهداً بسفر صالح ، فاستغفر لى ، قال : لقيت عمر ؟ قال : نعم ، فاستغفر له ، ففطن له الناس ، فانطلق على وجهه . رواه مسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط عينا سرية ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى ، رضى الله عنه ، فانطلقوا حتى كانوا بالهدأة ، بين عسفان ومكة ، ذكروا لحى من هذيل يقال لهم : بنو لحيان ، فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رام فاقتصوا آثارهم ، فلما أحس بهم عاصم وأصحابه ، لجئوا إلى موضع ، فأحاط بهم ا ـيم ، فقالوا : انزلوا ، فأعطوا بأيديكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحداً ، فقال عاصم بن ثابت : أيها القوم أما أنا ، فلا أنزل على ذمة كافر ؛ اللهم أخبر عنا نبيك ، ﷺ ، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصماً ، ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق ، منهم خبيب ، وزيد بن الدثنة ورجل آخر . فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم ، فربطوهم بها ، قال الرجل الثالث : هذا أول الغدر والله لا أصحبكم إن لى بهؤلاء أسوة ، يريد القتلى ، فجروه وعالجوه ، فأبى أن يصحبهم ، فقتلوه ، وانطلقوا بخبيب ، وزيد بن الدثنة ، حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر ، فابتاع بنو

الحارث بن عامر ابن نوفل بن عبد مناف خبيباً ، وكان خبيب هو
قتل الحارث يوم بدر ، فلبث خبيب عندهم أسيراً حتى أجمعوا على
قتله ، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يستحد بها فأعارته ،
فدرج بنى لها وهى غافلة حتى أتاه ، فوجتده مجلسه على فخذه
والموسى بيده ، ففزعت فزعة عرفها خبيب . فقال : أتخشين أن
أقتله ماكنت لأفعل ذلك ! . قالت والله مارأيت أسيراً خيراً من
خبيب ، فو الله لقد وجدته يوما يأكل قطفا من عنب فى يده وإنه
لموثق بالحديد وما بمكة من ثمرة ، وكانت تقول : إنه لرزق رزقه
الله خبيبا ، فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه فى الحل ، قال لهم
خبيب : دعونى أصلى ركعتين ، فتركوه ، فركع ركعتين فقال :
والله لولا أن تحسبوا أن ما بى جزع لزدت : اللهم احصهم عددا
واقتلهم بددا ، ولاتبق منهم أحدا ، وقال:

فلست أبالى حين أقتل مسلما

على أى جنب كان فى لله مصرعى

وذلك فى ذات الإله وإن يشأ

يبارك على أو صال شلو ممزع

وكان خبيب هو سن لكل مسلم قتل صبرا الصلاة ، وأخبر ـ يعنى النبى ﷺ ـ أصحابه يوم أصيبوا خبرهم ، وبعث ناس من قريش إلى عاصم بن ثابت حين حدثوا أنه قتل أن يؤتوا بشيء منه يعرف، وكان قتل رجلا من عظمائهم ، فبعث الله لعاصم مثل الظلة من الدبر ، فحمته من رسلهم ، فلم يقدروا أن يقطعوا منه شيئا . رواه البخارى .

وأخرج أبو نعيم فى الحلية ـ الجزء الأول صحيفة ١٠٣ ـ عن عثمان قال : لما رأى عثمان بن مظعون ـ رضى الله عنه ـ ما فيه أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ من البلاء ، وهو يغدو ويروح فى أمان من الوليد بن المغيرة ، قال : والله إن غدوى ورواحى آمنا بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابى وأهل دينى يلقون من الأذى والبلاء مالا يصيبنى ، لنقص كبير فى نفسى ، فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : يا أبا عبد شمس ! وفت ذمتك ، قد رددت إليك جوارك قال : لم يا ابن أخى ! لعله آذاك أحد من قومى ؟ قال : لا ، ولكنى أرضى بجوار الله عزوجل ، ولا أريد أن أستجير بغيره . قال : فانطلق إلى المسجد فاردد علي جوارى علانية كما آجرتك علانية .

قال: فانطلقا ثم خرجا حتى أتيا المسجد ، فقال لهم الوليد هذا عثمان ـ رضى الله عنه ـ قد جاء يرد على جوارى . قال لهم قد صدق ، قد وجدته وفيا كريم الجوار ، ولكنى قد أحببت أن لا أستجير بغير الله فقد رددت عليه جواره ، ثم انصرف عثمان ولبيد بن ربيعه بن مالك بن كلاب القيسى فى المجلس من قريش ينشدهم فجلس معهم عثمان . فقال : لبيد ــ وهو ينشدهم :ـ

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال عثمان : صدقت فقال :

وكل نعيم لا محــــالة زائــــل .

فقال عثمان : كذبت ، نعيم أهل الجنة لا يزول . قال لبيد بن ربيعة : يا معشر قريش ! والله ! ما كان يؤذى جليسكم فمتى حدث هذا ؟ فقال رجل من القوم : إن هذا سفيه فى سفهاء معه قد فارقوا ديننا فلا تجدن فى نفسك من قوله ، فرد عليه عثمان حتى سرى ـ أى عظم ـ أمرهما . فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضرها ، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان . فقال : أما والله! يا ابن أخى ! إن كانت عينك عما أصابها لغنية لقد كنت فى ذمة

منيعة . فقال عثمان : بلى والله ! إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها فى الله ، وإنى لفى جوار من هو أعز وأقدر يا أبا عبد شمس ! فقال عثمان بن مظعون رضى الله عنه ، فيما أصيب من عينه :

فإن تك عينى فى رضى الرب نالها

يدا ملحد فى الدين ليس بمهتـــد

فقد عوض الرحمن منها ثوابـــــه

ومن يرضه الرحمن ياقوم يسعـــد

فإنى وإن قلتم غوى مضـــــلل

سفيه على دينى الرسول محمـــد

أريد بذاك الله والحق دينـــــا

على رغم من يبغى علينا ويعتـدى

وقال على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، فيما أصيب من عين عثمان بن مظعون :

أمن تذكر دهر غير مأمـــون أصبحت مكتئبا تبكى كمحزون

أمن تذكر أقوام ذوى سفـــــه

يغشون بالظلم من يدعوإلى الدين

لا ينتهون عن الفحشاء ماسلموا

والغدر فيهم سبيل غير مأمـــون

ألا ترون ـ أقل الله خيرهـــم

أنا عضبنا لعثمان بن مظعـــون

إذ يلطمون ولا يخشون مقلتـه

طعنـــا دراكا وضربا غير مأفـون

فسوف يجزيهم إن لم يمت عجلا

كيـلا بكيل جزاء غير مغبون (١)

لقـد أخرج الإسـلام العظيم رجـالا أثبت من الشم الرواسى وأصلب من صلب الحديد .

شباب لـم تحطمه الليـــالـى ولم يسلم إلى الخصم العرينا

وإن جن المســاء فـلا تراهـم مـن الإشـفاق إلا سـاجدينا

---

(١) نقلا عن محمد يوسف الكاندهلوى ـ حياة الصحابة ـ الجزء الأول ص ٢٨١ـ٢٨٣ مكتبـة الدعـوة الإسـلامـيـة ـ شـبـاب الأزهر

فمـا فـتئ الزمـان يدور حـتى | مـضى بالمجـد قـوم آخـرونا
وآلمنى وآلـم كل حـــــــــر | سؤال الدهر يوما أين المسلمونا
ترى هل يعود الماضى فإنـــى | أذوب لذلك الماضى حنينـــا

* * *

ذرونى من أمان كاذبـــــات | فلم أجد المنى إلا ظنونــــا
وآتونى من الإيمان نـــــورا | وقـــووا بـين جـنبى اليقـينا
أمـد يدى فـأنتـزع الرواسـى | وأبن المجـد مـرتفـعـا مكينا

« ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل » .

ومـا نيل المطالب بالتـمنى | ولكن تؤخـذ الدنيـا عـلابا

إننا لم نخلق من طين فى حين أن الأباء قد خلقوا من مسك وكافور . لقد قال رسول الله ﷺ : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى . كتاب الله وسنتى » . لا بد من عودة إلى الدين صادقة ، وأوبة إلى الله مخلصة ، وعزمة على العمل جازمة . لا بد من توحيد الصفوف ، وتكثيف الجيوش ، وقدح الزناد ، **﴿ولا تهنوا ولا تحـزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مـؤمنين﴾** . إن الاستعلاء

بالإيمان ليس مجرد عزمة مفردة ، ولا نخوة دافعة ، ولاحماسة فائرة إنما هو الاستعلاء القائم على الحق الثابت المركوز فى طبيعة الوجود. الحق الباقى وراء منطق القوة ، وتصور البيئة ، واصطلاح المجتمع ، وتعارف الناس ، لأنه موصول بالله الحي الذى لا يموت .

إن للمجتمع منطقه السائد ، وعرفه القائم ، وضغطه الساحق ، ووزنه الثقيل .. على من لا يحتمى منه بركن ركين ، وعلى من يواجه بلا سند متين .. وللتصورات السائدة ، والأفكار الشائعة إيحاؤهما الذى يصعب التخلص منه بغير الاستقرار على حقيقة تصغر فى ظلها تلك التصورات والأفكار ، والاستمداد من مصدر أعلى من مصدرها وأكبر وأقوى .

والذى يقف فى وجه المجتمع ، ومنطقه السائد ، وعرفه العام ، وقيمه واعتباراته ، وأفكار ه وتصوراته ، وانحرافاته ونزواته ـ يشعر بالغربة كما يشعر بالوهن ، ما لم يكن يستند إلى سند أقوى من الناس ، وأثبت من الأرض ، وأكرم من الحياة .

والله لا يترك المؤمن وحيداً يواجه الضغط ، وينوء به الثقل ، ويهده الوهن والحزن.

إن المؤمن هو الأعلى .. الأعلى سنداً ومصدراً .. فما تكون الأرض كلها ؟ وما يكون الناس ؟ وما تكون القيم السائدة فى الأرض ؟ والاعتبارات الشائعة عند الناس ؟ . وهو من الله يتلقى ، وإلى الله يرجع ، وعلى منهجه يسير ؟ وهو الأعلى إدراكاً وتصوراً لحقيقة الوجود .. فالإيمان بالله الواحد فى هذه الصورة التى جاء بها الإسلام هو أكمل صورة للمعرفة بالحقيقة الكبرى . وحين تقاس هذه الصورة إلى ذلك الركام من التصورات والعقائد والمذاهب، سواء ما جاءت به الفلسفات الكبرى قديماً وحديثاً ، وما انتهت إليه العقائد الوثنية والكتابية المحرفة ، وما اعتسفته المذاهب المادية الكالحة .. حين تقاس هذه الصورة المشرقة الواضحة الجميلة المتناسقة ، إلى ذلك الركام وهذه التعسفات ، تتجلى عظمة العقيدة الإسلامية كما لم تتجل قط . وما من شك أن الذين يعرفون هذه المعرفة هم الأعلون على كل من هناك .

وهو الأعلى تصوراً للقيم والموازين التى توزن بها الحياة والأحداث والأشياء والأشخاص ، فالعقيدة المنبثقة من المعرفة بالله، بصفاته كما جاء بها الإسلام ، ومن المعرفة بحقائق القيم فى

الوجود الكبير لا فى ميدان الأرض الصغير ، هذه العقيدة من شأنها أن تمنح المؤمن تصوراً للقيم أعلى وأضبط من تلك الموازين المتخلفة فى أيدى البشر ، الذين لا يدركون إلا ما تحت أقدامهم . ولا يثبتون على ميزان واحد فى الجيل الواحد . بل فى الأمة الواحدة . بل فى النفس الواحدة من حين إلى حين .

وهو الأعلى ضميراً وشعوراً ، وخلقاً وسلوكاً .. فإن عقيدته فى الله ذى الأسماء الحسنى والصفات المثلى ، هى بذاتها موحية بالرفعة والنظافة والطهارة والعفة والتقوى ، والعمل الصالح والخلافة الراشدة ، فضلاً على إيحاء العقيدة عن الجزاء فى الآخرة ، الجزاء الذى تهون أمامه متاعب الدنيا وآلامها جميعاً ، ويطمئن إليه ضمير المؤمن ، ولو خرج من الحياة الدنيا بغير نصيب .

وهو الأعلى شريعة ونظاماً . وحين يراجع المؤمن كل ما عرفته البشرية قديماً وحديثاً ، ويقيسه إلى شريعته ونظامه ، فسيراه كله أشبه شئ بمحاولات الأطفال وخبط العميان ، إلى جانب الشريعة الناضجة والنظام الكامل . وسينظر إلى البشرية الضالة من عل فى

عطف وإشفاق على بؤسها وشقوتها ، ولا يجد في نفسه إلا الاستعلاء على الشقوة والضلال .

وهكذا كان المسلمون الأوائل يقفون أمام المظاهر الجوفاء ، والقوى المنتفخة، والاعتبارات التي كانت تتعبد الناس في الجاهلية.. والجاهلية ليست فترة من الزمان ، إنما هي حالة من الحالات تتكرر كلما انحرف المجتمع عن نهج الإسلام ، في الماضي والحاضر والمستقبل على السواء .

هكذا وقف المغيرة بن شعبة أمام صور الجاهلية وأوضاعها وقيمها وتصوراتها في معسكر رستم قائد الفرس المشهور :

«عن أبي عثمان النهدي قال : لما جاء المغيرة إلى القنطرة ، فعبرها إلى أهل فارس أجلسوه ، واستأذنوا رستم في إجازته ، ولم يغيروا شيئا من شارتهم تقوية لتهاونهم ، فأقبل المغيرة بن شعبة والقوم في زيهم ، عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، وبسطهم على غلوة «والغلوة مسافة رمية سهم وتقدر بثلاثمائة أو أربعمائة خطوة » لا يصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليها غلوة ، وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي حتى يجلس على سريره ووسادته

، فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه ، فقال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوماً أسفه منكم . إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً ، إلا أن يكون محارباً لصاحبه ؛ فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتمونى ... اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون ، وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ، ولا على هذه العقول » .

كذلك وقف ربعى بن عامر مع رستم هذا وحاشيته قبل وقعة القادسية :

« أرسل سعد بن أبى وقاص قبل القادسية ربعى بن عامر رسولاً إلى رستم ، قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابى والحرير ، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة العظيمة ، وعليه تاجه ، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربعى بن عامر بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة . ولم يزل راكبها حتى داس

بها على طرف البساط ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد . وأقبل وعليه سلاحه وبيضته على رأسه . فقالوا له : ضع سلاحك فقال : إنى لم آتكم ، وإنما جئتكم حين دعوتمونى ، فإن تركتمونى هكذا وإلا رجعت . فقال رستم : ائذنوا له ، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها . فقال له رستم : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

وتتبدل الأحوال ويقف المسلم موقف المغلوب المجرد من القوة المادية ، فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى . وينظر إلى غالبه من عل ما دام مؤمناً ، ويستيقن أنها فترة وتمضى ، وإن للإيمان كرة لا مفر منها . وهبها كانت القاضية فإنه لا يحنى لها رأساً . إن الناس كلهم يموتون أما هو فيستشهد . وهو يغادر هذه الأرض إلى الجنة وغالبه يغادرها إلى النار . وشتان شتان ، وهو يسمع نداء ربه الكريم **« لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ، لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من**

تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار﴾ .

وتسود المجتمع عقائد وتصورات وقيم وأوضاع كلها مغايرة لعقيدته وتصوره وقيمه وموازينه ، فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى ، وبأن هؤلاء كلهم فى الموقف الدون . وينظر إليهم من عل فى كرامة واعتزاز ، وفى رحمة كذلك وعطف ،ورغبة فى هدايتهم إلى الخير الذى معه ،ورفعهم الى الأفق الذى يعيش فيه .

ويضج الباطل ويصخب ، ويرفع صوتة وينفش ريشه ،وتحيط به الهالات المصطنعة التى تغشى على الأبصار والبصائر ، فلاترى ما وراء الهالات من قبح شائه دميم ، وفجر كالح لئيم .. وينظر المؤمن من عل إلى الباطل المنتفش ، وإلى الجموع المخدوعة ، فلايهن ولا يحزن ، ولا ينقص إصراره على الحق الذى معه ، وثباته على النهج الذى يتبعه ؛ ولا تضعف رغبته كذلك فى هداية الضالين والمخدوعين . ويغرق المجتمع فى شهواته الهابطة ، ويمضى مع نزواته الخليعة ، ويلصق بالوحل والطين ، حاسبا أنه

يستمتع وينطلق من الأغلال والقيود . وتغرق فى مثل هذا المجتمع كل متعة بريئة وكل طيبة حلال ، ولايبقى إلا المشروع الآسن ، وإلا الوحل والطين .. وينظر المؤمن من عل إلى الغـــاريقين فى الوحل اللاصقين بالطين. وهو مفرد وحيد ، فلايهن ولا يحزن ، ولاتراوده نفـســه أن يخلع رداءه النظيف والطاهر ، وينغـمس فى الحمأة ، وهو الأعلى بمتعة الايمان ولذة اليقين .

ويقف المؤمن قابضا على دينه كا لقابض على الجمر فى المجتمع الشارد عن الدين ، وعن الفضيلة ، وعن القيم العليا ، وعن الاهتمامات النبيلة ، وعن كل ما هو طاهر نظيف جميل .. ويقف الآخرون هازئين بوقفته ، ساخرين من تصور اته ، ضاحكين من قيمه .. فما يهن المؤمن وهو ينظر من عل إلى الساخرين والهازئين والضاحكين ، وهو يقول كما قال واحد من الرهط الكرام الذين سبقوه فى موكب الإيمان العريق الوضيء ، فى الطريق اللاحب الطويل .. نوح عليه السلام ..﴿ **إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون** ﴾ .

وهو يرى نهايه الموكب الوضيء ، ونهاية القافلة البائسة ﴿ **إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ، وما أرسلوا عليهم حافظين ، فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينظرون ، هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾ .

* * *

هل العالم الغربي مسيحي حقاً ؟

الوعد العظيم بالتقدم غير المحدود ـ وعد السيطرة على الطبيعة، والوفرة المادية والسعادة القصوى للأغلبية العظمى ، والحرية الشخصية غير المحدودة ـ هذا الوعد كان محط الأمال ومنبع الإيمان للأجيال منذ بداية العصر الصناعى . يقول إريك فروم (Erich Fromm) فى كتابه نتملك أو نكون : « من المؤكد أن مدنيتنا بدأت منذ بدأ الجنس البشرى سيطرتة الفعالة على الطبيعة ، غير أن هذه السيطرة ظلت محدودة إلى أن جاء العصر الصناعى . وبإحلال الطاقة الميكانيكية ثم الطاقة النووية محل طاقة الحيوان والإنسان ، إلى إحلال الحاسبات الإلكترونية محل المخ البشرى ، شعرنا بأننا بسبيلنا إلى الإنتاج غير المحدود ، ومن ثم إلى الاستهلاك غير المحدود وجعلنا التقدم التكنولوجى وكأننا قادرون على كل شئ كما جعلنا التقدم العلمى وكأننا عالمون بكل شئ »[1] ومن ثالوث الإنتاج غير المحدود ، والحرية المطلقة ، والسعادة غير المحدودة

---

(١) إريك فروم ـ الإنسان بين الجوهر والمظهر «نتملك أو نكون » ـ عالم المعرفة ـ الكويت ١٤٠ ـ ذو الحجة ١٤٠٩هـ أغسطس ١٩٨٩ . ص ١٩ .

تشكلت نواة دين جديد اسمه التقدم ، ولن نستطيع أن نفهم الصدمة التى أحدثها التحقق من إخفاق هذا « الوعد العظيم » فى أيامنا هذه إلا إذا تصورنا كم كان عظيما ذلك الوعد ، وكم كانت هائلة تلك المنجزات المادية والثقافية التى جاءبها العصر الصناعى .
فالحق أن العصر الصناعى أخفق فى الوفاء بوعده العظيم . ويوما بعد يوم يتزايد عدد الناس الذين أصبحوا مدركين لما يأتى :

* إن إشباع كل ما يعن للناس من رغبات ، بغير قيود ، لا يوصل للحياة الطيبة ، وليس هو السبيل للسعادة ، ولا حتى للمتعة القصوى .

* إن حلمنا بأن نكون السادة الأحرار لحياتنا قد انتهى ، وذلك عندما بدأنا نتنبه إلى أننا جميعاً قد أصبحنا مجرد تروس فى الآلة البيروقراطية ، وأن الصناعة والحكومة وأجهزتهما الإعلامية هى التى تشكل مشاعرنا وأفكارنا وأذواقنا وتتلاعب بها كما تريد .

* إن التقدم الصناعى ظل مقتصراً على الأمم الغنية ، وإن الهوة التى تفصل الأمم الغنية عن الأمم الفقيرة تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم .

* إن التقدم التكنولوجى نفسه قد خلق مخاطر إيكولوجية (أى

تهدد البيئة الطبيعية) ومخاطر الحرب النووية . وهذه أو تلك ، أو كلتاهما معاً ، يمكن أن تكون السبب فى إنهاء كل أشكال الحضارة ،وربما كل أشكال الحياة على ظهر هذا الكوكب . وفى ١٩٥٢ ، عندما قدم ألبرت شفايتزر (Albert Schweitzer) إلى أوسلو لتسلم جائزة نوبل للسلام ، تحدى العالم « أن يجرؤ على مواجهة الموقف » ...

ويرجع إخفاق الوعد العظيم للعصر الصناعى ـ إذا ما تغاضينا عن تناقضاته الاقتصادية الجوهرية ـ إلى المقدمتين النفسيتين الأساسيتين اللتين بنى عليهما وهما :

(١) إن الهدف من الحياة هو السعادة ، أى تحقيق أقصى متعة ، أى إشباع أى رغبة أو حاجة ذاتية تعن للمرء .

(٢) إن الأنانية ، والسعى لتحقيق المصلحة الشخصية ، والجشع ـ وهى الصفات التى يولدها النظام من أجل تسيير أموره ـ تفضى إلى الانسجام والسلام .

إن الحاجة لتغيير إنسانى عميق لا تنبع من كونها مطلباً أخلاقياً

ودينياً فحسب ، كما أنها ليست مجرد مطلب سيكولوجي منشؤه الطبيعة الممرضة لنظامنا الإجتماعي ، ولكنها ـ بالإضافة إلى كل هذا ـ شرط لمجرد بقاء الجنس البشرى . لم تعد الحياة الخيرية مجرد استجابة للمتطلبات الأخلاقية والدينية لأنه أصبح مجرد البقاء المادى للجنس البشرى يتوقف على إحداث تغيير جذرى فى وجدان الإنسان وقلبه وضميره .

تقول كتب التاريخ ، كما يعتقد معظم الناس ، أن أوربا اعتنقت المسيحية أولاً أثناء الإمبراطورية الرومانية ، تحت حكم الإمبراطور قسطنطين ، ثم جاء اعتناق وثنيى أوربا الشمالية الدين المسيحى على أيدى القديس بونيفاشيوس (St. Bonifacious) رسول الجرمان ، وغيره من المبشرين ، فى القرن الثامن الميلادى ، ولكن ، هل حدث وأن اعتنقت أوربا المسيحية بحق ؟ .

يقول إريك فروم ، الذى كان أستاذاً لعلم النفس فى جامعة نيويورك « على الرغم من أن الإجابة على هذا السؤال هى بالإيجاب عموماً إلا أن التحليل الدقيق يثبت أن اعتناق أوربا للمسيحية كان زائفاً إلى حد كبير ، وأنه ـ على أقصى تقدير ـ يمكن الحديث عن

اعتناق محدود للمسيحية من القرن الثانى عشر إلى القرن السادس عشر ، وأنه فى القرون التى سبقت هذه الفترة والقرون التى تلتها كان تنصير أوربا نوعاً من الاعتناق الإيديولوجي ، مع خضوع متفاوت لسلطة الكنيسة ، ولم يكن يعنى تغييراً فى الطبائع والأخلاق الحقيقية ، أى فى بنية الشخصية ، باستثناء عدد من الحركات المسيحية الأصيلة » . (1)

فى تلك القرون الأربعة كانت أوربا قد بدأت تتنصر ، حيث حاولت الكنيسة أن تطبق المبادئ المسيحية فى معالجة مشكلات الملكية والأسعار ، ورعاية الفقراء ، وظهر كثير من الطوائف والقادة الراديكاليين ، متأثرين بالصوفية إلى حد كبير ، ليطالبوا بالعودة إلى مبادئ المسيح التى تتضمن إدانة الاستغلال والتفاخر بأعراض الحياة. وهبت الصوفية التى بلغت الذروة لدى المعلم إيكهارت ، ولعبت دوراً حاسماً فى تلك الحركة الإنسانية المناهضة للاستبداد والشمولية ولم يكن صدفة أن برز كثير من النساء فى الحركة الصوفية كمعلمات وطالبات ، وعبر كثير من المفكرين المسيحيين عن أفكار

---

(1) السابق صـ ١٤٨ .

تدعو الى دين عالمى ، أو إلى مسيحية بسيطة غير متزمتة إلى درجة إثاره النقاش والشك حول فكرة الرب كما وردت فى التوراة . وحين جاء عصر النهضة فإن فلسفة الإنسانيين الدينيين وغير الدينيين ، ومدنهم الفاضلة (Utopias) كانت استمراراً لما اختطه أسلافهم فى القرن الثالث عشر الميلادى . والحق أنه لا يوجد خط حاد يفصل بين العصر الوسيط المتأخر « نهضةالعصر الوسيط » وعصر النهضة الحقيقى .

يقول فردريك ب . آرتز (Fredrick B. Artz):

« فى شئون المجتمع كان المفكرون العظام فى العصر الوسيط يرون أن كل الناس متساوون أمام الرب ، وأن لأبسط البسطاء قيمة غير محدودة ، وفى الاقتصاد كانت تعاليمهم تقول : إن العمل لا يحط من قدر الإنسان وإنما يرفعه ، وأنه لا يجوز استخدام إنسان فى أداء عمل يتجافى مع صالحه ، وأن العدل يجب أن يكون معيار تحديد الأجور والأسعار . وفى السياسة كانت تعاليمهم تقول : إن وظيفة الدولة يجب أن تكون معنوية ، وإن الإدارة والقانون يجب أن يكونا مشربين بأفكار المسيحية عن العدالة ، وإن العلاقة بين الحاكم

والمحكوم يجب أن تقوم على الالتزام المتبادل بين الجانبين ، وإن الله أودع الدولة والملكية والعائلة أمانة فى أيدى أربابها يوجهونها من أجل أهداف مقدسة . وأخيراً ، فإن المثل الأعلى لذلك العصر تضمن الاعتقاد الراسخ بأن كل الأمم والشعوب ليست إلا مكونات للجماعة البشرية الكبيرة الواحدة ».(١)

كان البطل المسيحى هو « الشهيد » ، حيث أسمى ما يستطيع المرء تحقيقه ، وهو أن يهب حياته من أجل الرب أو من أجل رفاقه. والشهيد المسيحى هو النموذج العكسى تماماً للبطل الوثنى كما يتجسد فى أبطال الإغريق والجرمان . كان غاية ما يصبو إليه هذا النوع الأخير من الأبطال هو أن يغزو وينتصر ، أن يدمر وينهب ويسرق . كان تحقيق الحياة عندهم هو الغرور والتكبر والأبهة والسلطة والشهرة والتفوق فى القدرة على القتل وسفك الدماء (وقد شبه القديس أو غسطين التاريخ الرومانى بتاريخ عصابة من اللصوص) . كانت قيمة البطل الوثنى هى فى براعته فى الاستيلاء على السلطة والتشبث بها ، وهو يموت سعيداً فى ساحة القتال

---

(١) السابق صـ ١٤٩ .

لحظة النصر . ولم تكن إلياذة هوميروس إلا الوصف الشاعرى الرائع للغزاة واللصوص الممجدين .

يتساءل إريك فروم « أى من هذين النموذجين المتعارضين اللذين شهدهما تطورنا لا يزال سائداً فى أوربا ؟» .

ثم يجيب على تساؤله فيقول : « لو أننا أمعنا النظر فى أنفسنا ، فى سلوك أغلبية الناس ، وفى قادتنا السياسيين ، لرأينا بيقين أن البطل الوثنى هو النموذج الذى نعتبره حسناً ، هو النموذج الذى نعتبر أن له قيمة . فالتاريخ الأوربى الأمريكى (الشمالى) على الرغم من اعتناق المسيحية ، ليس إلا تاريخ الغزو والأبهة والتكبر والجشع . وأعظم قيمنا هى أن نكون أقوى من الآخرين ، وأن نغزوهم ونقهرهم ونستغلهم » .

لسنا بحاجة إلى إثبات أن تاريخ أوربا هو تاريخ للغزو والاستغلال والقوة والإخضاع والقهر . لا تكاد توجد فترة أو مرحلة من التاريخ الأوربى إلا كانت هذه سماتها . لا يستثنى من ذلك طبقة ولا جنس . لا توجد جريمة إلا ارتكبت ، بما فى ذلك عمليات الإبادة الجماعية لشعوب بأسرها ، مثل ما حدث للهنود الحمر . حتى

الحروب الصليبية التى جعلت من الدين ستاراً لها لم تكن استثناء . فهل كان الدافع لهذا السلوك اقتصادياً أو سياسياً فحسب ؟ هل كان تجار العبيد وحكام الهند وقتلة الهنود الحمر ، والبريطانيون الذين أجبروا الصينيين على فتح أبواب بلادهم لتجارة الأفيون ، ومثيروا حربين عالميتين ، وأولئك الذين يحضرون لحرب عالمية ثالثة هل هؤلاء مسيحيون مؤمنون حقاً ؟ أو ربما كان القادة وحدهم هم الوثنيين المتوحشين بينما الأغلبية الساحقة من الناس العاديين ظلوا مسيحيين . من المؤكد طبعاً أن القادة كانوا غالباً أكثر جشعاً وضراوة من الأتباع ، حيث كانت مغانمهم وأسلابهم أكبر ، ولكنهم ما كانوا ليستطيعوا تحقيق أهدافهم لو لم تكن شهوة الغزو والانتصار جزءاً من مكونات الشخصية الاجتماعية .

إذا صح كل هذا ، فلماذا لم ينبذ الأوربيون والأمريكيون المسيحية صراحة باعتبارها عقيدة لم تعد تتمشى وروح العصر ؟ ثمة أسباب عديدة ، منها ــ على سبيل المثال ــ أن الإيديولوجية الدينية مطلوبة للمحافظة على روح الانضباط عند الناس وصيانة التماسك الاجتماعى . غير أن ثمة سبباً أكثر أهمية : فالناس المؤمنون إيماناً

راسخاً بالمسيح ، كأعظم من أحب ، بإمكانهم أن يحولوا هذا الإيمان بطريق الاغتراب ، إلى تجربة أن المسيح هو الذى يحب نيابة عنهم . وهكذا يتحول المسيح إلى وثن ، ويصبح الإيمان به تعويضاً عن المحبة التى يعجز عنها الشخص . والصيغة البسيطة اللاواعية لهذا النوع من الإيمان هى « المسيح هو الذى يحب كل الحب نيابة عنا ، يمكن أن نواصل حياتنا على نسق البطل الإغريقى ، ولكن خلاصنا مضمون لأن الإيمان المغترب فى المسيح يعوضنا من عدم السلوك على مثاله » . وغنى عن القول أن الإيمان المسيحى يفيد أيضاً كستار رخيص لتغطية السلوك الشخصى المتوحش . ويعتقد إريك فروم « أن فى أعماق الكائن البشرى حاجة عميقة للحب بحيث أن سلوك الذئاب يثقل على ضمائرنا ويشعرنا بإحساس الذنب . ومن ثم فإن إيماناً معلناً ، ولو مزعوماً بالحب ، يخدر ضمائرنا ، ويخفف الشعور اللا واعى بالذنب ، نتيجة خلو حياتنا تماماً من الحب » .

* * *

وفقاً للنظرة العلمية القديمة ، المادة أساسية والعقل ثانوى .
وهذه البديهة تتجلى فى أسلوب النظرة القديمة إلى الإنسان فى العالم . نظرة زراية للعقل البشرى وإعلاء لشأن الكون المادى اللامحدود واللا شخصى ، تذهب إلى أن الإنسان ، إذا قيس بالأرض أو الشمس أو المجرة ، تافه من حيث الحجم وغير ذى شأن من حيث القوة . والنظرة القديمة تنكر على الإنسان ما تعتبره مغالاة منه فى إحساسة بأهميته الذاتية قائلة : إن كوبر نيكوس (copernicus) قد خلع الانسان المغرور عن عرشه فى مركز الكون ، وأن عليه أن يدرك أنه مخلوق بالغ الصغر يسكن كوكبا تافها يدور حول نجم لا شأ ن له .

ذلك أن منطق المادية ينكر الغائية ذاهبا إلى أن الكون ليس سوى مادة ، وبالتالى لا يمكن أن يكون فى الأشياء الطبيعية أى هدف ، لأن المادة لا تستطيع أن تقصد هدفا أو ترسم خطة ، بل تتصرف بضرورة ميكانيكية داخلية فحسب ، وبالتالى يتحتم على التفسيرات العلمية أن تقتصر على الأسباب المادية والميكانيكية فحسب.

وبيكون (Bacon) ، وديكارت (Descartes) كلاهما يستبعد من العلوم الطبيعية أى دعوة إلى الغائية . يقول بيكون : «إن مطلب الغائية يفسد العلوم بدلاً من أن يرقى بها » . وديكارت يقول الشئ نفسه : « كل ضروب الغائية لا قيمة لها فى الأشياء المادية أو الطبيعية » . وصحيح أن هذا الرفض يستند إلى أسباب تتعلق بالمنهجية ، إذ أن بيكون وديكارت لم يكونا من المؤمنين بالمذهب المادى أو من الملاحدة ، ولكن النتيجة تظل واحدة ، وهى أنه لا مكان للغائية فى علوم النظرة القديمة .

فهل لله مكان فى مثل هذا الكون ؟ لقد كان نيوتن يؤمن بذلك ، فحاول أن يحتفظ بمكان للألوهية فى نظامه الميكانيكى الخاص بالسماوات . ففى رسالة وجهها إلى الدكتور ريتشارد بنتلى (Richard Bently) فى عام ١٦٩٢ أكد نيوتن على أن الله ضرورى لإحداث حركة الكواكب وإرساء البنية الأصلية للمجموعة الشمسية قائلاً : « إن حركات الكواكب الراهنة لا يمكن أن تكون قد انبثقت من أى علة طبيعية فحسب ، بل كانت مفروضة بفعل قوة عاقلة » .

وإذا كان نيوتن غير مستعد لاستبعاد الله من العلوم فلم يكن هذا شأن غيره . ومن أمثلة ذلك أن الرياضى والفلكى الشهير بيير- سيمون لا بلاس - (Pirre Simon Laplace) ، حين سأله نابليون عن مكان الله فى نظامه الميكانيكى الخاص بالأجرام السماوية أجابه بما يلى : « يا سيدى لست بحاجة إلى هذا الافتراض » . وبحلول القرن التاسع عشر كان الكثيرون يذهبون إلى أن الله لا يُرى بالعقل ولا بالعين . وأصبحت العلوم شيئاً فشيئاً أقرب إلى اللا أدرية (أو الغنوصية) والواقع أن لفظة «لا أدرية » كانت فى ابتكار عالم الأحياء توماس هكسلى فى عام ١٨٦٩ . ويعرب كارل ف . غاوس (Carl F . Gauss) وهو أعظم علماء الرياضيات فى القرن التاسع عشر ، عن هذه الشكوك فيقول: « هنالك مشاكل أعلق على حلها أهمية تفوق بما لا حد له ، تلك التى أوليها للمسائل الرياضية ، كتلك المتعلقة بالأخلاق ، أو بعلاقتنا بالله ، أو بقدرنا ومستقبلنا ، ولكن حلها خارج كلياً عن متناولنا ، وهو يقع خارج ميدان العلم » .

وذهب مفكرون آخرون إلى أن العلم لا يفسح المجال للا أدرية .

وحجتهم فى ذلك أن الكون آلة تدير نفسها بنفسها وبالتالى لا تحتاج البتة إلى أى سبب فوق الطبيعة . وإذا كانت المادة أزلية فلا يبدو أن هناك حاجة إلى خالق . وهكذا اعتبر الكثيرون أن الإلحاد أدنى إلى الصدق وأكثر اتساقا مع النظرة العلمية القديمة . وفرويد هو أحد ممثلى هذا الموقف من الدين فى النظرة القديمة . فهو يعلن أن « أديان البشر يجب أن تصنف باعتبارها وهما من أوهام الجماهير» . فالإنسان فى الأديان إنما يبحث عن مهرب من الواقع . ويتابع فرويد حديثه قائلاً : « إن الأفكار الدينية نشأت من ضرورة حماية الإنسان لنفسه من قوة الطبيعة المتفوقة والساحقة » . والناس فى رأى فرويد يميلون إلى الاعتقاد بوجود أب وراء هذا الكون لأنهم ، بوصفهم أطفالاً ، بحاجة ماسة إلى رعاية أب . وهكذا فإن الإنسان هو الذى يخلق الله ، لا العكس ، ويضيف فرويد أن البشر « لا بد لهم من أن يعترفوا لأنفسهم بكامل عجزهم وتفاهة دورهم فى آلية الكون . فهم لا يستطيعون بعد اليوم أن يكونوا محور الخليقة أو موضع عناية إلهية خيرة » . وفيما يتعلق بالدين يتنبأ فرويد بأن «هذه الطفولية (Infantlism) مقدور لها أن تتجاوز بالتأكيد » ،

ويتحتم على الإنسان أن يتحلى بالشجاعة الكافية للاعتراف بأنه وحيد فى هذا الكون الفسيح واللا شخصى .

فماذا تقول النظرة العلمية الجديدة عن كل هذا ؟ أولاً ، إن لديها أنباء مثيرة عن الكون ذاته . يقول عالم الفيزياء الفلكية دنيس شياما (Dennis Sciama) « لعل أهم اكتشاف علمى من اكتشافات القرن العشرين هو أن الكون بأكمله ، بوصفه كلية واحدة ، قابل للبحث العقلانى باستخدام علمى الفيزياء والفلك » . وقد تيسرت هذه النظرية الجديدة للكون بمجئ نظرية النسبية العامة لأينشتاين وهى ، خلافاً لنظرية نيوتن فى الفيزياء ، قد جمعت بين الجاذبية والمكان والزمان . يقول ويلر : « لقد علّمنا أينشتاين أن المكان عنصر مشارك فى الفيزياء ، لا ميدان للفيزياء فحسب » . والشئ نفسه ينطبق على الزمان . وعملية التوحيد هذه زودت الفيزيائيين للمرة الأولى بأدوات البحث المتصل فى بنية الكون بأكمله وفى أصله ومآله . فبعد نشر النسبية العامة رأينا الفلكى وليم دى سيتر (Willem de Sitter) والرياضى ألكساندر فريدمان (Alexander Friedmann) يستنتجان من النظرية الجديدة ،

كل على حدة ، أن الكون آخذ فى التمدد . وسرعان ما يثبت ذلك بالمشاهدة ، فخلال العشرينات من هذا القرن اكتشف الفلكى ادويــن هبل (Edwin Hubble) ، أثناء تحليله للضوء المنبعث من المجرات البعيدة ، أن جميع المجرات الممكن رصدها يتباعد بعضها عن بعض . وكان هذا أول مفتاح لأسرار تاريخ الكون . فإذا كانت المجرات تتباعد الآن بعضها عن بعض ، فلا بد إذن من أنها كانت فى الماضى السحيق متحدة ، مما يدل على أن للكون بداية ، خلافاً للنظرة القديمة التى ترى أن المادة أزلية .

ثم جاءت إشارة ثانية من مجال الفيزياء النووية . فلقد كان كيميائيو القرن التاسع عشر يعرفون أن الشمس لا يمكن أن تحرق وقوداً تقليدياً فالإحتراق الكيميائى العادى لم يكن يصلح تفسيراً لطاقة الشمس ، إذ لو كانت كتلة الشمس كلها فحماً لاحترقت نفسها فى غضون ثلاثمائة عام . وظلت الشمس لغزاً إلى حين اكتشاف الطاقة النووية فى السنوات الأولى من القرن العشرين . وأخيراً تمكن الفيزيائيان هانز بيته (Hans Bethe) ، وكارل فون فايتز ساكر (Carl Von Weizsacker) فى عام ١٩٣٨ من

تقديم تفسير كامل لكيفية إنتاج الشمس للطاقة من خلال تحول العناصر النووية . ففى قلب الشمس يتحول الهيدروجين إلى هيليوم، منتجاً الطاقة والضوء . وعلى مدى ملايين السنين كانت العمليات التى تتم داخل كل نجم تكون شيئاً فشيئا لا الهليوم فحسب ، بل جميع العناصر الأثقل : الكربون ، والأكسجين ، والسليكون ، والحديد ، وسائر العناصر ، وكان معنى ذلك أنه إذا كانت كل العناصر الثقيلة فى الكون قد تكونت من الهيدروجين فى قلوب النجوم فلابد إذاً من أن الكون كله تقريباً كان مركباً فى البداية من الهيدروجين ، وهذا يدل مرة أخرى على أن للكون بداية . وأخيراً تقدم الفيزيائى جورج غاموف (George Gamov) فى عام ١٩٤٨ ، بعد أن جمع الأدلة المستمدة من تباعد المجرات ومن دورة حياة النجوم ، برأى مفاده أن الكون نفسه نشأ من تمدد بدئى للمادة أطلق عليه اسم « الانفجار العظيم ». ويفترض أن كرة النيران فائقة الحرارة قد تمددت بسرعة كالانفجار ثم بردت . وباستخدام الفيزياء النووية بين غاموف كيف أن الجسيمات دون الذرية التى كانت موجودة فى أسبق المراحل أنتجت ، بتأثير درجات الحرارة والضغوط

اللاحقة ، ذرات الكون حديث النشأة . وفضلاً عن ذلك بين أنه، نتيجة لعمليات التمدد والتبريد ، لا بد من تشتت وهج خافت من الإشعاع الأساسى بشكل منتظم فى جميع أرجاء الكون .

وظل تنبؤ غاموف معلقاً طوال عدة أعوام . ثم اكتشف آرنو بنزياس (Arno Penzias) وروبرت ويلسون (Robert Wilson) فى عام ١٩٦٥ ، بمحض الصدفة ، وباستخدام جهاز ضخم لالتقاط الموجات الصغرى ، إشعاعاً ضعيفاً منبعثاً من الفضاء . وبعد أن قاس بنزياس وويلسون هذا الإشعاع بدقة لم يسبق لها مثيل وجدا أنه يقرب من ٣,٥ درجة فوق الصفر المطلق ولم يكن الإشعاع أشد كثافة فى اتجاه الشمس أو فى اتجاه مجرة درب التبانة (Milky Way) . ولذا لا يمكن أن تكون المجموعة الشمسية أو المجرة مصدر هذا الإشعاع . فلم يبق إلا تفسير واحد وهو أنه بقى من الإشعاع الأصلى الناتج من « الانفجار العظيم » . وهذا الدليل القائم على المعاينة أكد نظرية الانفجار العظيم .

« فعالمنا ، إذاً ، تولد فى أعقاب تمدد هائل فى المادة ، ويشير

حجم التمدد ومعدل سرعته الحاليان إلى أن الكون بدأ منذ ما يتراوح ما بين ١٢ و ٢٠ مليار سنة ، وفى جزء من السكستليون Sextillion (١٠٠٠٠٠٠٠)٦ من الثانية بعد البداية كانت كل المادة الموجودة فى الكون معبأة فى مساحة أصغر كثيراً من الحيز الذى يشغله بروتون واحد . وكانت الكثافة فى تلك المرحلة تهول الخيال : تصور أن الكواكب والنجوم والمجرات بكاملها ، وكل المادة والطاقة فى الكون كانت جميعها محتواة فى حيز لا يكاد حجمه يعادل شيئاً . وفى لحظة الصفر من بداية الزمن كانت الكثافة غير متناهية دون حدوث أى تمدد فى المكان على الإطلاق . وكانت تلك اللحظة لحظة بداية المكان والزمان والمادة . وينبغى ألا نتصور أن الانفجار العظيم أحدث تمدداً فى المادة فى مكان قائم بالفعل . فالانفجار العظيم هو نفسه تمدد المكان ، وهذا يمكن أن يفهمه العقل ولكن لا يمكن أن يتصوره الخيال »[1]

---

(١) روبرت م . أغروس وجورج ن . ستانسيو ـ العلم فى منظوره الجديد ـ عالم المعرفة ـ الكويت ١٣٤ ـ جمادى الآخرة ١٤٠٩هـ ـ فبراير / شباط ١٩٨٩م ـ ص ٦١ ، ٦٢ .

إن النظرة العلمية الجديدة ترى أن الكون بمجموعه ـ بما فى ذلك المادة والطاقة والمكان والزمان ـ حدث وقع فى وقت واحد وكانت له بداية محددة . ولكن لا بد من أن شيئا ما كان موجوداً على الدوام ، لأنه إذا لم يوجد أى شئ من قبل على الإطلاق فلا شئ يمكن أن يوجد الآن . فالعدم لا ينتج عنه إلا العدم . والكون المادى لا يمكن أن يكون ذلك الشئ الذى كان موجوداً على الدوام لأنه كان للمادة بداية . وتاريخ هذه البداية يرجع إلى ما قبل ١٢ إلى ٢٠ مليار سنة . ومعنى ذلك أن أى شئ وجد دائماً هو شئ غير مادى . ويبدو أن الحقيقة غير المادية الوحيدة هى العقل . فإذا كان العقل هو الشئ الذى وجد دائماً فلا بد من أن تكون المادة من خلق عقل أزلى الوجود . وهذا يشير إلى وجود كائن عاقل وأزلى خلق كل الأشياء . وهذا الكائن هو الذى نعنيه بعبارة « الله » .

إذا تقرر هذا فاعلم أن ذات الله تبارك وتعالى أكبر من أن تحيط بها العقول البشرية ، أو تدركها الأفكار الإنسانية ، لأنها مهما بلغت من العلو والإدراك محدودة القوة ، محصورة القدرة .

إن عقولنا من أكبرها إلى أصغرها ، تنتفع بكثير من الأشياء ولا تعلم حقائقها . إن غاية علمنا أن يجيب عن السؤال ما هذا ؟ ولكنه يعجز أمام اللغز المحير لماذا ؟ .

كان الإنسان القديم يعرف أن السماء تمطر ، لكننا اليوم نعرف كل شئ عن عملية تبخر الماء فى البحر ، حتى نزول قطرات الماء على الأرض ، وكل هذه المشاهدات صور للوقائع ، وليست فى ذاتها تفسيراً لها ، فالعلم لا يكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين ؟ وكيف قامت بين الأرض والسماء على هذه الصورة المفيدة المدهشة حتى أن العلماء يستنبطون منها قوانين الطبيعة العلمية ؟. والحقيقة أن ادعاء الإنسان بعد كشفه لنظام الطبيعة أنه قد كشف تفسير الكون ـ ليس سوى خدعة لنفسه ، فإنه قد وضع بهذا الادعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة .

يقول البروفيسور (سيسيل بايس هامان) ، وهو أستاذ أمريكى فى البيولوجيا : « كانت العملية المدهشة فى صيرورة الغذاء جزءاً من البدن تنسب من قبل إلى الإله ، فأصبحت اليوم بالمشاهدة الجديدة تفاعلاً كيماوياً ، هل أبطل هذا وجود الإله ؟ فما القوة

التى أخضعت العناصر الكيماوية لتصبح تفاعلاً مفيداً .. ؟ إن الغذاء بعد دخوله فى الجسم الإنسانى يمر بمراحل كثيرة خلال نظام ذاتى ، ومن المستحيل أن يتحقق وجود هذا النظام المدهش باتفاق محض ، فقد صار حتماً علينا بعد هذه المشاهدات أن نؤمن بأن الله يعمل بقوانينه العظمى التى خلق بها الحياة » .[1]

ويضيف العالم الأمريكى سيسيل قائلاً :

« Nature does not explain , She is herself in need of explanation »

« إن الطبيعة لا تفسر شيئا (من الكون) ، وإنما هى نفسها بحاجة إلى تفسير »

فلو أنك سألت طبيباً : ما السبب وراء احمرار الدم ؟

لأجاب : لأن فى الدم خلايا حمراء .

ـ حسناً ، ولكن لماذ تكون هذا الخلايا حمراء ؟

---

(١) نقلاً عن وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدى ـ المختار الإسلامى ص ٤٢ .

ـ فى هذه الخلايا مادة تسمى (الهيموجلوبين) وهى مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأكسجين فى القلب .

ـ هذا جميل . ولكن من أين تأتى هذه الخلايا التى تحمل الهيموجلوبين ؟ .

ـ إنها تصنع فى كبدك[1]

ـ عجيب ! ولكن كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم والخلايا والكبد وغيرها ، بعضها ببعض ارتباطاً كلياً وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة ؟ .

ـ هذا ما نسميه بقانون الطبيعة .

ـ ولكن مالمراد بقانون الطبيعة هذا ، يا سيدى الطبيب ؟ .

ـ المراد بهذا القانون هو الحركات الداخلية العمياء للقوى الطبيعية والكيماوية .

---

(١) فى حالة الجنين . بدءاً من الفترة من ٦ ـ ١٠ أسابيع من الحمل ، يقوم الكبد بدور كبير فى تكوين خلايا الدم ، أما بعد الولادة فإن نخاع العظام هو المسئول .

ـ ولكن لماذ تهدف هذه القوى دائماً إلى نتيجة معلومة ؟ وكيف تنظم نشاطها ، حتى تطير الطيور فى الهواء ، ويعيش السمك فى الماء ، ويوجد إنسان فى الدنيا ، بجميع ما لديه من الإمكانات والكفاءات العجيبة المثيرة ؟ .

ـ لا تسألنى عن هذا ، فإن علمى لا يتكلم إلا عن : (ما يحدث) وليس له أن يجيب : (لماذا يحدث ؟) .

يتضح من هذه الأسئلة مدى صلاحية العلم الحديث لشرح العلل والأسباب وراء هذا الكون . ولا شك أنه قد أبان لنا عن كثير من الأشياء التى لم نكن على معرفة بها ، ولكن الدين جواب لسؤال آخر ، لا يتعلق بهذه الكشوف العلمية الحديثة ، فلو أن هذه الكشوف زادت مليون ضعف عنها اليوم فسوف تبقى الإنسانية بحاجة إلى الدين ، إن جميع هذه الكشوف « حلقات ثمينة من السلسلة » ، ولكن ما يحل محل الدين لا بد أن يشرح الكون شرحاً كلياً وكاملاً ، فما الكون على حاله هذا إلا كمثل ماكينة تدور ، وهى مغطاة بغطاء يحجب أجزاءها الداخلية ، فلا نعلم عنها إلا أنها تدور ، ولكننا لو فتحنا غطاءها فسوف نشاهد

كيف ترتبط هذه الماكينة بدوائر وتروس كثيرة ، يدور بعضها ببعض، ونشاهد حركاتها كلها . هل معنى هذا أننا قد علمنا خالق هذه الماكينة بمجرد مشاهدتنا لما يدور داخلها ؟ هل يفهم منطقياً أن مشاهدتنا هذه أثبتت أن الماكينة جاءت من تلقاء ذاتها ، وتقوم بدورها ذاتياً ؟ لو لم يكن هذا الاستدلال منطقياً فكيف إذاً نثبت بعد مشاهدة بعض عمليات الكون ـ أنه جاء تلقائياً ، ويتحرك ذاتياً؟.

يقول « هربرت سبنسر » الإنجليزى فى رسالته فى التربية :

« العلم يناقض الخرافات ، ولكنه لا يناقض الدين . يوجد فى شئ كثير من العلم الطبيعى الشائع روح الزندقة ، ولكن العلم الصحيح الذى تجاوز المعلومات السطحية ورسب فى أعماق الحقائق ، براء من هذه الروح . العلم الطبيعى لا ينافى الدين ، والتوجه للعلم الطبيعى عبادة صامتة ، واعتراف صامت بنفاسة الأشياء التى تعاين وتدرس ، ثم بقدرة خالقها ، فليس ذلك التوجه تسبيحاً شفهياً ، بل هو تسبيح عملى ، وليس باحترام مدعى ، إنما هو احترام أثمرته تضحية الوقت والتفكير والعمل . وهذا العلم لا يسلك طريق الاستبداد فى تفهيم الإنسان استحالة إدراك السبب الأول وهو « الله»

ولكنه ينهج بنا النهج الأوضح فى تفهيمنا الاستحالة ، بإبلاغنا جميع أنحاء الحدود التى لا يستطاع اجتيازها ، ثم يقف بنا فى رفق وهوادة ، عند هذه النهاية ، وهو بعد ذلك يرينا بكيفية لا تعادل صغر العقل الإنسانى إزاء ذلك الذى يفوت العقل ... »

ثم أخذ يضرب الأمثلة فقال : « إن العالم الذى يرى قطرة الماء فيعلم أنها تتركب من الأكسجين والإيدروجين بنسبة خاصة ، بحيث لو اختلفت هذه النسبة لكانت شيئاً آخر غير الماء ، يعتقد عظمة الخالق وقدرته وحكمته وعلمه الواسع بأشد وأعظم وأقوى من العالم الطبيعى الذى لا يرى فيها إلا أنها قطرة ماء فحسب ، وكذلك العالم الذى يرى قطعة البرد فيرى تحت مجهره ما فيها من جمال الهندسة ، ودقة التقسيم ، لا شك أنه يشعر بجمال الخالق ودقيق حكمته أكبر من ذلك الذى لا يعلم عنها إلا أنها مطر تجمد من شدة البرد » .[1]

* * *

---

(١)نقلاً عن مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ـ دار الشهاب ص ٣٢٠ .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

حين تأزمت الأمور ، وامتلأت مصر بالشائعات ، وكممت الأفواه ، وخنقت الحريات ، وانتشر الظلم والعدوان ـ بعث الأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام الثانى للإخوان المسلمين خطاباً إلى رئيس الحكومة المصرية فى عام ١٩٥٤ قال فيه : « السيد جمال عبد الناصر رئيس مجلس الوزراء : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد :

« فإنى ما زلت أحييك بتحية الإسلام ، وأقرئك السلام ، وما زلت ترد عل التحية بالشتائم ، واتهام السرائر ، واختلاق الوقائع وإخفاء الحقائق ، والكلام المعاد الذى سبق لكم قوله والاعتذار عنه » .

« إن الأمة فى حاجة الآن إلى القوت الضرورى ، القوت الذى يزيل عن نفسها الهم والغم والكرب ، إنها فى حاجة إلى حرية القول ، فمهما قلتم : أنكم أغدقتم عليها من خير فإنها لن تصدق إلا إذا سمحتم لها بأن تقول أين الخير وسمحتم لها أن تراه ، ومهما قلتم أنكم تحكمونها حكماً ديمقراطياً ، فإنها لن تصدق ، لأنها

محرومة من نعمة الكلام والتعبير عن الرأى » .

« أيها السيد : إن الأمة قد ضاقت بحرمانها من حريتها ، فأعيدوا إليها حقها فى الحياة . إذا كان الغضب على الهضيبى وعلى الإخوان المسلمين قد أخذ منكم كل مأخذ ، فلكم الحق أن تغضبوا ، وهذا شأنكم ، ولكن لاحق لكم فى أن تحرضوا الناس على الإخوان وتغروهم بهم ، وليس ذلك من كياسة رؤساء الوزارات فى شئ فإنه قد يؤدى إلى شر مستطير وبلاء كبير ، ومن واجبكم أن تحافظوا على الناس مخطئهم ومصيبهم ، وأن تجمعوا شمل الأمة على كلمة سواء ، وإنكم لا شك تعلمون أن الإخوان المسلمين حملة عقيدة ليس من الهين أن يتركوها ولا أن يتركوا الدفاع عنها ما وجدوا إلى الدفاع سبيلاً ، فإغراء بعض الأمة بهم وتحريضهم عليهم من الأمور التى لا تؤمن عواقبها » .

« ولعل الذى حملك على العداوة والبغضاء للإخوان المسلمين هو أنهم عارضوا المعاهدة ، فالإخوان المسلمون لن يؤمنوا بها دون أن تناقش فى برلمان منتخب انتخاباً حراً يمثل الأمة أكمل تمثيل .

وخير لكم وللأمة ألا تخدعوا أنفسكم عن الحقائق ، فإن الأمة

قد بلغت من حسن الرأى ومن النضج مبلغاً يسمح لها بألا يتصرف أحد فى شؤونها دون الرجوع إليها والأخذ برأيها ، والسلام عليكم» .(1)

إن خلفاء المسلمين وحكامهم الذين كانوا قبل القضاء على الخلافة الإسلامية ، لم يكونوا يكرهون الإسلام ، ولا كانوا يبغون عنه بديلاً ، ولا كانوا يتولون كافراً يظاهرونه على شعوبهم ، ولم يحاولوا يوماً من الأيام تغيير أحكام الشرع ، أو تبديل حكم من أحكام الإسلام ، أو استبدال نظام من أنظمته الربانية ، بنظام دخيل صنعته أهواء البشر .

- بل كانوا يطبقون شرع الله ، ويأخذون المسلمين بأنظمته وحدوده ، ويعلنون الحرب على أعدائه ، وينشرون دعوة الله فى الأرض ، ويدافعون عن ديار الإسلام ولا يفرطون بشئ من أراضيها

---

(1) مجلة الدعوة ، العدد السابع السنة السادسة والعشرون ، غرة المحرم ١٣٩٧هـ / ١٩٧٦م ؛ نقلاً عن الدكتور / محمد نعيم ياسين ـ الجهاد ميادينه وأساليبه ـ مكتبة الزهراء ـ ١٤١١هـ ١٩٩٠م . صـ ١٩٥ ، ١٩٦ .

أو أهلها .

ولذلك فإنهم كانوا يحسبون لعلماء المسلمين حساباً ، وكانت كلمات أولئك تؤثر فى قلوبهم فى كثير من الأحيان . بل تراهم أحياناً يقصدون العلماء بأنفسهم ، ليروا من خلالهم مقدار قربهم أو بعدهم من الله تعالى ودينه .

ولكن بعض أولئك الحكام وقع منهم انحرافات وإساءات ، وخدعتهم الدنيا بعض الشئ ، فاتبعوا أهواءهم فى بعض الأمور ، حرصاً على الحكم والسلطان ، فكان من أولئك مظالم وسيئات ، استفزت حفيظة حراس دين الله فى الأرض ، وهم العلماء ، فوقفوا لهم يصوبونهم ، ويسددونهم وينذرونهم ، باللين حيناً وبالشدة حيناً آخر . إن علماء السلف ، فى جملتهم ، لم يتهاونوا فيما كانوا يرون من انحراف الحكام ، وخروجهم عن سوء الصراط . لم يكونوا ينتظرون حتى يخرج أولئك الحكام عن دين الله عز وجل ، أو حتى يستشرى الفساد فى الأرض ، بل كانوا يقفون أمام كل انحراف ، وكل ظلم ، خوفاً من اتساع الخرق وازدياد الانحرافات . وقد كان لصنيعهم هذا أجل الأثر فى بقاء دولة الإسلام تلك القرون المتطاولة،

وجعل كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

ثم حدث فى العصور الإسلامية المتأخرة أن تقاعس العلماء عن الجهر بالحق ، فاتسع الخرق بقدر تخلى العلماء عن واجبهم ، حتى تمزقت دولة المسلمين على أيدى أعدائهم ، ووزعت أشلاء تلك الدولة على أمراء لا يهمهم أمر الإسلام ، ولا أمر المسلمين ، وإنما كان سعيهم ونضالهم وكدهم دائماً من أجل بقاء حكمهم وسلطانهم ، وهنا وقع الناس فى بلاء عظيم ، وأصابتهم أم المصائب، وحرموا العيش فى ظلال الإسلام وأحكامه ومناهجه وأخلاقه ، وهى محنة لم تعد تكفى فيها كلمة الحق عند سلطان جائر .

ذلك أنه عندما يوصد الحكام أبوابهم أمام العلماء ، ولا يمكنون أحداً من أهل العلم من تذكيرهم ، فى مثل هذه الحالة لا يكفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر باللسان ، وليس أمام المؤمنين الصادقين إلا أن يعملوا مجتمعين لإقصاء الحكام الظالمين عن مراكز القيادة وتسليمها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً. فإذا عادت المياه إلى مجاريها ، ورد الأمر إلى أهله ، واستلم الزمام

أناس تنفعهم الذكرى ، كان على العلماء أن يساعدوهم على حمل الأمانة ، ويصوبوهم إذا وقعوا فى الخطأ أو مال بهم الهوى .

إن غاية الإخوان المسلمين تنحصر فى تكوين جيل جديد من المؤمنين بتعاليم الإسلام الصحيح ، يعمل على صبغ الأمة الإسلامية بالصبغة الإسلامية الكاملة فى كل مظاهر حياتها ، وإن وسيلتهم فى ذلك تنحصر فى تغيير العرف العام ، وتربية أنصار الدعوة على هذه التعاليم ، حتى يكونوا قدوة لغيرهم فى التمسك بها ، والحرص عليها ، والنزول على حكمها . وإنهم ساروا إلى غايتهم فى حدود وسيلتهم فوصلوا إلى درجة من النجاح يطمئنون إليها ، ويحمدون الله عليها .

ويتساءل كثير من الناس : هل فى عزم الإخوان المسلمين أن يستخدموا القوة فى تحقيق أغراضهم ، والوصول إلى غايتهم ؟ وهل يفكر الإخوان المسلمون فى إعداد ثورة عامة على النظام السياسى والنظام الاجتماعى فى مصر ؟ .

ويجيب الإمام البنا المرشد العام الأول لجماعة الإخوان المسلمين، فى رسالة المؤتمر الخامس ، على ذلك فيقول : « أما

القوة فشعار الإسلام فى كل نظمه وتشريعاته ، فالقرآن الكريم ينادى فى وضوح وجلاء ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾ . والنبى ﷺ يقول : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ... » ، بل إن القوة شعار الإسلام حتى فى الدعاء وهو مظهر الخشوع والمسكنة ، واسمع ماكان يدعو به النبى ﷺ فى خاصة نفسه ويعلمه أصحابه ويناجى به ربه : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » . ألا ترى فى هذه الأدعية أنه قد استعاذ بالله من كل مظهر من مظاهر الضعف : ضعف الإرادة بالهم والحزن ، وضعف الإنتاج بالعجز والكسل ، وضعف الجيب والمال بالجبن والبخل ، وضعف العزة والكرامة بالدين والقهر ؟ فماذا تريد من إنسان يتبع هذا الدين إلا أن يكون قوياً فى كل شئ ، شعاره القوة فى كل شئ؟ فالإخوان المسلمون لا بد أن يكونوا أقوياء ، ولا بد أن يعملوا فى قوة » .

ويتابع قائلاً : « ولكن الإخوان المسلمين أعمق فكراً ، وأبعد

نظراً ، من أن تستهويهم سطحية الأعمال والفكر ، فلا يغوصوا إلى أعماقها ولا يزنوا نتائجها وما يقصد منها وما يراد بها ، فهم يعلمون أن أول درجات القوة قوة العقيدة والإيمان ، ويلى ذلك قوة الوحدة والترابط ، ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح . ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة حتى تتوفر لها هذه المعانى جميعاً ، وإنها إذا استخدمت قوة الساعد والسلاح وهى مفككة الأوصال مضطربة النظام أو ضعيفة العقيدة خامدة الإيمان فسيكون مصيرها الفناء والهلاك » .

ثم يطرح سؤالاً فيقول : « هل أوصى الإسلام ـ والقوة شعاره ـ باستخدام القوة فى كل الظروف والأحوال ؟ أم حدد لذلك حدوداً واشترط شروطاً ووجه القوة توجيهاً محدوداً ؟ » .

ويعود فيتساءل : « هل تكون القوة أول علاج أم أن آخر الدواء الكى ؟ وهل من الواجب أن يوازن الإنسان بين نتائج استخدام القوة النافعة ونتائجها الضارة وما يحيط بهذا الاستخدام من

---

(١) رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ـ دار الشهاب ص ١٦٩

ظروف؟ أم من واجبه أن يستخدم القوة وليكن بعد ذلك ما يكون؟»[1] .

هذه نظرات يلقيها الإخوان المسلمون على أسلوب استخدام القوة قبل أن يقدموا عليه ، والثورة أعنف مظاهر القوة ، فنظر الإخوان المسلمين إليها أدق وأعمق . ولكن الإمام البنا يتحدث بصراحة فيقول : « إن الإخوان المسلمين سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدى غيرها ، وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة ، وهم حين يستخدمون هذه القوة سيكونون شرفاء صرحاء وسينذرون أولاً ، وينتظرون بعد ذلك ثم يقدمون فى كرامة وعزة ، ويحتملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضاء وارتياح »[1].

ويتساءل فريق آخر من الناس : هل فى منهاج الإخوان المسلمين أن يكونوا حكومة وأن يطالبوا بالحكم ؟ وما وسيلتهم إلى ذلك ؟ .

ويجيب الإمام البنا فيقول : « الإخوان المسلمون يسيرون فى جميع خطواتهم وآمالهم وأعمالهم على هدى الإسلام الحنيف

---

(١) السابق ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

كما فهموه ، ... وهذا الإسلام الذى يؤمن به الإخوان المسلمون يجعل الحكومة ركناً من أركانه ، ويعتمد على التنفيذ كما يعتمد على الإرشاد ؛ وقديماً قال الخليفة الثالث رضى الله عنه : « إن الله ليزع بالسلطان مالايزع بالقرآن » . وقد جعل النبى ﷺ الحكم عروة من عرى الإسلام . والحكم معدود فى كتبنا الفقهية من العقائد والأصول ، لا من الفقهيات والفروع ، فالإسلام حكم وتنفيذ ، كما هو تشريع وتعليم ، كما هو قانون وقضاء ، لا ينفك واحد منها عن الآخر . والمصلح الإسلامى إن رضى لنفسه أن يكون فقيهاً مرشداً يقرر الأحكام ويرتل التعاليم ويسرد الفروع والأصول ، وترك أهل التنفيذ يشرعون للأمة مالم يأذن به الله ويحملونها بقوة التنفيذ على مخالفة أوامره ، فإن النتيجة الطبيعية أن صوت هذا المصلح سيكون صرخة في واد ونفخة فى رماد كما يقولون » .

ويتابع فيقول : « قد يكون مفهوماً أن يقنع المصلحون الإسلاميون برتبة الوعظ والإرشاد إذا وجدوا من أهل التنفيذ إصغاءً لأوامر الله وتنفيذاً لأحكامه ، وإيصالاً لآياته وأحاديث نبيه ﷺ ،

وأما والحال كما ترى : التشريع الإسلامى فى واد والتشريع الفعلى والتنفيذى فى واد آخر ، فإن قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية لا يكفرها إلا النهوض واستخلاص قوة التنفيذ من أيدى الذين لا يدينون بأحكام الإسلام الحنيف » .[1]

---

(١) السابق صـ ١٧٠ ، ١٧١ .

رقم الإيداع : ١٩٩٤/٣٨٤٤م

I.S.B.N: 977- 00 - 6836-5

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

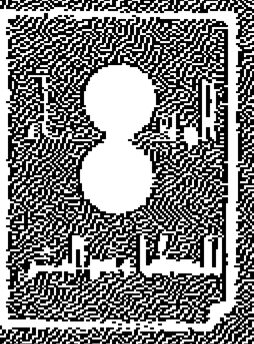
ت : ٣٤٢٧٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس . ٢٤٠٠٤ DWFA UN

فى هذا الكتاب

* ثلاث رسائل إلى فضيلة السيد الأستاذ المرشد العام للإخوان المسلمين .
* الخيط الرفيع .
* الإخوان المسلمون .
* التقوى .
* الشهيد .
* الجهاد فى سبيل الله .
* استعلاء الإيمان .
* هل العالم الغربى مسيحى حقاً ؟
* الله .
* الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

توزيع



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ش.م.م

السعر : ٤٥٠ قرشاً